البَابُ الأَوَّلُ

باب الإخلاص

obeikandl.com

obeikandl.com

التعريف اللغوي للإخلاص

قال ابن منظور في لسان العرب:

(خَلَصَ) خَلَصَ الشَّيءُ، بالفتح يَخْلُصُ خُلُوصًا وخلاصًا. إذا كانَ قدْ نَشبَ ثم نَجَا وسَلِمَ.

وأَخْلَصَهُ وخَلَّصهُ، وأَخْلَصَ لله دِينهُ: أَمْحَضَهُ.

وأَخْلَصَ الشيءَ: اخْتارَهُ.

وقُرِئَ: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ والمُخْلَصِين، قال ثعلبٌ: يعني بالمُخلِصين الذين أخلصوا العبادة لله تعالى.

والمُخْلَصين: الذين أخلصهم الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الزَّجَّاج: وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ وقرئ مُخْلِصًا والمُخْلَصُ: الذي أَخْلَصَهُ الله جَعَلَهُ مُخْتارًا من الدَّنَسِ.

والمُخْلِصُ: الذي وَحَّدَ الله تعالى خالِصًا.

قال ابن الأثير: سُمِّيت سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ بسورة الإخلاص؛ لأنها خالِصةٌ في صِفَةِ الله تعالى وتَقدَّسَ، أو لأنَّ اللَّافِظَ بها قَد أَخْلَصَ التَّوحِيد لله عَزَّوَجَلَّ.

وكَلِمَةُ الإخلاص كَلِمَةُ التوحيد[1].

---

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور المجلد الثالث الصفحة رقم [١٧٦] ط. دار الحديث القاهرة سنة الطبع ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، مادة (خلص).

تعريف الإخلاص اصطلاحا

قال صاحب المنازل: الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب[١].

قال الجُنيد: الإخلاص سرٌّ بين الله وبين العبد لا يعلمهُ ملكٌ فيكتبهُ ولا شيطان فيفسدهُ ولا هوًى فيميله.

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدًا غير الله، ولا مجازيًا سواه.

وقيل: الإخلاص هو استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن.

والرياء: أن يكون ظاهره خيرًا من باطنه.

والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

وقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد والطاعة

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل أيضًا: إن الإخلاص: هو أن يعمل العمل لا يحب أن يحمده عليه أحد من الناس كما قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للحواريون.

قال ابن أبي الدنيا: حَدَّثنا سُريج بن يُونس وإسحاق بن إسماعيل وغيرهما، قالوا: حَدَّثنا جَرير بن عبدالحميد، عن عبد العزيز بن رُفيع، عن أبي ثمامة قال: قال الحواريون لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما الإخلاص لله؟ قال: الذي يعمل العمل لا يحب أن يحمده عليه أحد

(١) «مدارج السالكين» الجزء الثاني ص[٧٧].

من الناس، قالوا: فمن المناصح لله؟ قال: الذي يبدأ بحق الله قبل حق الناس، إذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للأخرة بدأ بأمر الله قبل أمر الدنيا[١].

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالإخلاص فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البَيِّنَة: ٥].

يقول تعالى ذكره: وما أمر الله هؤلاء اليهود والنصارى الذين هم أهل الكتاب إلا أن يعبدوا الله مُخلصين له الدين يقول: مُفْردين له الطَّاعة لا يخلطون طاعتهم لرّبهم بشركٍ، فأشركت اليهود بربها بقولهم: عزيرٌ ابن الله، والنصارى بقولهم في المسيح مثل ذلك، وجحودهم نبوّة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ[٢]، وقال العلاَّمة القُرءاني السعدي في تفسيره ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ في سائر الشرائع ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: قاصدين بجميع عبادتهم الظَّاهرة والباطنة وجه الله عَزَّوَجَلَّ وطلب الزُّلْفى لديه ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد وخصَّ الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله ﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أن التوحيد والإخلاص في الدين هما ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾أي: الدين المستقيم الموصل إلى جنات النعيم وما سواه فطرقه موصلة إلى الجحيم[٣].

ويجب على الإنسان أن يخلص النية لله في جميع عباداته وألا يقصد بعبادته إلا وجه الله والدار الأخرة سواء كانت هذه العبادة ظاهرة أم باطنة لأن الله لا يخفى عليه

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخلاص» ص [١٤].

(٢) «تفسير الطبري».

(٣) «تفسير السعدي».

شيء في الأرض ولا في السماء، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٢٩].

ويقول الله تعالى مخبرًا عن أهل الشرك في عدم إخلاصهم في حال الرخاء والإخلاص لله في حال الشدة. يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقال هنا: ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ وقد ذكر محمد بن إسحاق أن عكرمة بن أبي جهل لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فارًّا منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء؛ فإنه لا ينجي ههنا إلا هو، فقال عكرمة: والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره فإنه لا ينجي في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رءوفًا رحيمًا فكان كذلك[1].

ويقول الله تبارك وتعالى مخبرًا المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

قال ابن كثير رحمه الله: في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يأمره الله تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه

(١) «تفسير ابن كثير».

أنه مخالف لهم في ذلك. فإن صلاته لله ونسُكه على اسمه وحده لا شريك له وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أي: أخلِص لهُ صلاتك وذبحك فإن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والإقبال بالقصد والعزم على الإخلاص لله تعالى.

قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ قال: النُسك: الذبح في الحج والعمرة، وقال الثوري عن السّدي عن سعيد بن جُبير ﴿وَنُسُكِي﴾ قال: ذبحي

وكذا قال السّدي والضحاك[1]، وقال غيره[2]،

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: وما آتيه في حياتي عليه من الإيمان والعمل الصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالصًا لوجهه ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ﴾ الإخلاص ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة لأن إسلام كل نبي متقدم إسلام أمته، قال قتادة ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة.

يخْلُص لنا من هذه الآيات المباركات أنه لابد للقائم بالعبادة أن يخلص لله ويفرد الله عَزَّوَجَلَّ بالقصد في الطاعة.

وأن يقصد بالتعبد بذلك وجه الله والقرب إليه ولا يكن غايته في ذلك الفعل الرياء والسمعة ولا لجاهٍ ولا لسلطانٍ، ولا حظّ لنفسه، ولا منزلةٍ عند الناس ولكن يقصد بهذا العمل وجه الله ومتابعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ولذلك قال: الفضيل بن عياض رَحِمَهُٱللَّهُ: عند قوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]. قال: أخلصه وأصوبه؛ فإن العمل إذا

(١) «تفسير ابن كثير».

(٢) قال غيره: يعني غير ابن كثير من المفسرين.

كان خالصًا ولم يكن صوبًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص: أن يكون لله. والصواب: أن يكون على السنة[١].

وللإخلاص فوائد كثيرة جدًّا منها:

- الفائدة الأولى- خُلوص الأمة ورفعتها وهذا من أعظم فوائده.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**»[٢].

وعن أُبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَشِّر هذه الأمة بالسّناء والدين والرفعة والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الأخرة من نصيب**»[٣].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كم من أشعث أغبر ذي طمرين**[٤]**، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك**»[٥].

- الفائدة الثانية- الإخلاص لله سبب في تفريج الكربات:

عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**بينما ثلاثة نفرٍ يتمشّون أخذهم المطر، فأووا إلى غارٍ في جبلٍ فانحطت على فم غارهم صخرةٌ من الجبل فانطبقت عليهم،**

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخلاص» برقم [٢٢].

(٢) صحيح رواه النسائي وغيره عن سعد بن أبي وقاص وهو في «البخاري» وغيره دون ذكر الإخلاص وصححه الشيخ العلامة الألباني في «صحيح الترغيب»، و«صحيح الجامع».

(٣) صحيح رواه الإمام أحمد، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وصححه الشيخ العلامة الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» و«صحيح الجامع» برقم [٢٨٢٥].

(٤) أي: صاحب ثوبين خليقين.

(٥) رواه الترمذي والبيهقي في «دلائل النبوة»، وحسنه الشيخ الألباني في «المشكاة»، وذكره في «صحيح الجامع» برقم [٤٥٧٣].

فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالًا عملتُموها صالحةً لله فادعوا الله تعالى بها، لعل الله يفرِّجُها عنكم، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران وامرأتي، ولي صبيةٌ أرعى عليهم، فإذا أرحت عليهم حلبت، فبدأت بوالديَّ فسقيتهما قبل بَنيّ؛ وإنه نأى بي ذات يوم الشجر، فلم آت حتى أمسيتُ، فوجدتُهما قد ناما، فحلبتُ كما كُنْتُ أحلِبُ، فجئتُ بالحِلابِ فقُمتُ عِندَ رُءُوسِهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتاضغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجرُ، فإن كُنت تعلمُ أنّي فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجةً نرى منها السماء، ففرج الله منها فرجةً فرأوا منها السماء وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنةُ عمٍّ أحببتها كأشد ما يحب الرجالُ النساء، وطلبت إليها نفسها، فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها، فلما وقعت بين رجليها قالت: يا عبد الله اتق الله، ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجةً، ففرج لهم. وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرًا بفرق أرزٍّ، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه فرقه، فرغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرًا ورعاءها، فجاءني، فقال: اتق الله ولا تظلمني حقي، قلت اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها، فقال: البقر ورعاءها، فأخذه، فذهب به، فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي، ففرج الله ما بقي»[1].

قال الإمام النووي شارحًا لهذا الحديث: قوله ﷺ: «فأووا إلى غار في جبل» الغار النقب في الجبل، وأووا بقصر الهمزه.

قوله: «انظروا أعمالًا عملتموها صالحة فادعوا الله بها لعله يفرجها» فيه دليل على أنه يستحب للإنسان أن يدعو في حال كربه، وفي دعاء الاستسقاء وغيره، بصالح عمله، ويتوسل إلى الله تعالى به؛ لأن هؤلاء فعلوه فاستجيب لهم، وذكره النبي ﷺ

(١) رواه الإمام البخاري ومسلم واللفظ لمسلم.

في معرض الثناء عليهم وجميل فضائلهم وفي هذا الحديث فضل بر الوالدين، وفضل خدمتهما وإيثارهما عمن سواهما من الأولاد والزوجة وغيرهم، وفيه فضل العفاف والانكفاف عن المحرمات لاسيما بعد القدرة عليها، والهمّ بفعلها، ويترك لله تعالى خالصًا، وفيه جواز الإجازة، وفضل حسن العهد، وأداء الأمانة والسماحة في المعاملة وفي إثبات كرامات الأولياء، وهو مذهب أهل الحق.

قوله: «**فإذا أرحت عليهم حلبت**» معناه إذا رددت الماشية من المرعى إليهم وإلى موضع مبيتها وهو مراحها بضم الميم، يقال: أرحت الماشية وروحتها.

ومعنى قوله: «نأى بي ذات يوم الشجر» معناه بَعُدَ،

قوله: «**الصبية يتضاغون**» أي: يصيحون ويستغيثون من الجوع.

قوله: «**لا أَغْبقُ قبلهما أهلًا ولا مالا**» أي: ما كنت أقدم عليهما أحدًا في شرب نصيبهما عشاء اللبن، والغَبُوق شرب العشاء.

قوله: «**ألَمَّت بها سنة**» أي: وقعت في سنة قحط.

قوله: «**فلم يزل ذلك دأبي**» أي: حالي اللازمة.

قوله: «**وقعت بين رجليها**» أي جلست مجلس الرجال للوقاع.

قوله: «**لاتفتح الخاتم إلا بحقه**» الخاتم كناية عن بكارتها، قوله: «**بحق**» أي: بنكاح لا بزنا.

قوله: «**بفرق أرز**» إناء يسع ثلاثة آصُع.

قوله: «**فرغب عنه**» أي: كره وسخه وتركه.

قوله: «**فثمَّرت أجره**» أي: ثمنه.

من الفوائد: التوسل بالأعمال الصالحة وأصلحها الإخلاص.

- الفائدة الثالثة- الإخلاص والمتابعة شرطان لقبول العمل:

اعلم علمني الله وإياك أن العبد لا يكون متحققًا بعبادته لله تعالى إلا بأصلين:

الأول- إخلاص العبودية.

الثاني- متابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والناس في هذين الأصلين أربعة أقسام:

القسم الأول- أهل الإخلاص والمتابعة:

فأعمالهم كلها لله وأقوالهم ومنعهم وإعطاؤهم وحبهم وبغضهم كل ذلك لله تعالى، لا يريدون من العباد جزاءً ولا شكورًا، عدُّو الناس كأصحاب القبور لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا فإنه لا يعامل أحدٌ الخلق إلا لجهله بالله وجهله بالخلق.

والإخلاص هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل عملًا صوابًا عاريًا منه، وهو الذي ألزم عباده إلى الموت قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]. وأحسن العمل أخلصه وأصوبه.

فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على وفق سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا هو العمل الصالح المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وهو العمل الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]. وهو الذي أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «كل عمل ليس عليه

أمرنا فهو رد»[١]، وكل عمل بلا متابعة فإنه لا يزيد عامله إلا بعدًا من الله تعالى؛ فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالأهواء والآراء.

القسم الثاني- من لا إخلاص له ولا متابعة:

وهؤلاء شرار الخلق وهم المتزينون بأعمال الخير يراءون بها الناس، وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المنتسبين إلى الفقه والعلم والعبادة فإنهم يرتكبون البدع والضلال والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدو بما لم يفعلوا.

وفي أضراب هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

القسم الثالث: من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة الأمر:

كَجُهَّال العُبَّاد والمُنتسبين إلى الزُّهد والفقر وكل من عَبَدَ الله على غيرِ مُرادِهِ، والشأن ليس في عبادة الله فقط: بل في عبادة الله كما أراد الله[٢].

القسم الرابع: من أعماله على متابعة الأمر:

لكنها لغير الله تعالى كطاعات المرائين، كالرجل يقاتل رياءً وسمعةً وحِمِيةً وشجاعةً وللمَغْنَم، يحج ليُقَال، ويقرأ ليُقال، ويُعَلِّم ويؤلِّف ليقال، فهذه أعمال صالحة لكنها غير مقبولة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥].

فلم يؤمر الناس إلا بالعبادة على المتابعة والإخلاص فيها، والقائم بها هم أهل[٣]: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) «تجريد التوحيد المفيد» للإمام تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ص [٥٣]

(٣) «تجريد التوحيد المفيد» للإمام تقي الدين أحمد المقريزي.

- الفائدة الرابعة: أنه ليس للشيطان سبيل على المخلصين:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٣٥-٤٢].

فهذه الآيات المباركات تبين أن عباد الله الذين أخلصهم الله لنفسه المتقين الذين يجتنبون ما نهى الله عنه ويأتمرون بما أمر الله به ليس للشيطان عليهم سبيل؛ لأنهم في معية رب العالمين، وإن الشيطان هو أُس البلايا ومنبع الشرك والرياء ولكن لا سبيل له على المخلصين، هم منه في حرز أمين.

وحتى يكون ما بيننا وبينه أبعد مما بين الخافقين. فهناك كثير من الوسائل والأسباب للإنسان أن يتخذها حتى يكون الإنسان من المخلصين وفي حفظ الله من الشياطين منها.

- جعل الله لعباده حصنًا يتحصنون به بالليل والنهار:

أولًا- حصن الليل:

وهو قراءة آية الكرسي عندما تأوي إلى الفراش كما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه أتاه آتٍ يحثو من الصدقة، وكان قد جعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليها، ليلة بعد ليلة فلما كان في الليلة الثالثة قال: لأرفعنك إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ مَن

ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ حتى تختمها، فإنهُ لن يزل عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال: صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان[1].

ثانيًا- حصن النهار:

كما ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه**»[2].

- الفائدة الخامسة- ومن أهمية الإخلاص:

كان شرطًا من شروط كلمة التوحيد (لا إله إلا الله).

فالإخلاص شرط من شروط قبول الأعمال وليس على النفس شيء أشق من الإخلاص، فكم من الأعمال والأقوال والأحوال قد هبت عليها ريح الشرك بأنواعه فدمرتها وأهلكتها.

فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرَك فيه معي غيري تركته وشركه**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه مسلم في كتاب «الزهد».

يقول الإمام ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أن العمل لغير الله أقسام؛ فتارة يكون رياءً محضًا، بحيث لا يراد به سوى مراءاة المخلوقين لغرض دنيوي كحال المنافقين في صلاتهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢].

وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة، والصيام، وقد يصدر في الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها فإن الإخلاص فيها عزيز وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه...

وعن شداد بن أوس عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك، وإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: «**أنا خير قسيم لمن أشرك بي فمن أشرك بي شيئًا فإن جسده وعمله وقليله وكثيره لشريكه الذي أشرك بي وأنا عنه غني**»(١).

ثم يقول وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطر ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا؟ أيجازى على أصل نيته؟ في ذلك خلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٥-١٢٦)، والحاكم (٤/ ٣٢٩)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: فيه شهر بن حوشب وثقه أحمد وغيره وضعفه غير واحد.

سُئِل عن الرجل يعمل العمل لله من الخير يحمده الناس عليه؟ فقال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»[١]، انتهى ملخصًا.

وإخلاص التوحيد[٢]، هو تحقيق التوحيد وتجريده وإخلاص العبادة لله تعالى وحده وتحقيقه تصفيته وتخليصه من كل شوائب الشرك والبدع فلا يكون الحب إلا لله، والخوف من الله، والذل لله، والرجاء في الله، والتوكل على الله، والاستعانة بالله، والاستغاثة بالله، والنذر لله، والذبح لله، والطلب من الله، والعمل لله فهو لله وبالله، ومع الله جل وعلا.

وتحقيق التوحيد عزيز في الأمة، لا يوجد إلا في أهل الإيمان الخُلص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه كما قال تعالى في يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: ٢٤]. بفتح اللام وفي قراءة (المخلِصين) بكسرها وهم في صدر هذه الأمة كثيرون وفي آخرها هم الغرباء، وقد قلوا، وهم الأعظمون قدرًا عند الله.

وقال تعالى عن خليله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩]. أي: أخلصت ديني وأفردت عبادتي للذي فطر السماوات والأرض أي: خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَنِيفًا﴾ أي: في حال كونه حنيفًا، أي: مائلًا عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ونظائر هذه الآية في القرآن كثير[٣]، فكمال الإخلاص في التوحيد لا يكون مطلقًا إلا بتمام البراءة من جميع صور الشرك

---

(١) رواه مسلم برقم [٢٦٤٢]، [١٦٦] كتاب «البر والصلة والأدب»، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره.

(٢) «حقيقة التوحيد» لفضيلة الشيخ/ محمد حسان ص [٢٠٨] وما بعدها.

(٣) «قرة عيون الموحدين» للشيخ/ عبد الرحمن بن حسن ص [٣٥]، الطبعة الثالثة، نشر مكتبة ابن الجوزي.

وأهلـه، وإخـلاص العبادة لله وحـده وإخـلاص الطاعة لرسـول الله ﷺ، فمن اجتنب الشرك كله كبيره وصغيره وخفيه وأخلص عبادته لله فهو الموحد حقًّا.

ولما سُئِل النبي ﷺ كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قيل: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه أو نفسه**»(١).

يقول الإمام ابن حجر في الفتح وشرحه لهذا الحديث المبارك: فإنه ﷺ يشفع في الخلق لإراحتهم من هول الموقف، ويشفع في بعض الكفار بتخفيض العذاب كما صح في حق أبي طالب، ويشفع في بعض المؤمنين بالخروج من النار بعد أن دخلوها، وفي بعضهم بعدم دخولها بعد أن استوجبوا دخلوها، وفي بعضهم بدخول الجنة بغير حساب وفي بعضهم برفع الدرجات فيها، فظهر الاشتراك في السعادة بالشفاعة، وأن أسعدهم بها المؤمن المُخلِص والله أعلم. انتهى(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى حديث أبي هريرة: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تُنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد...!!!

يقول شيخ الإسلام وغيره: فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا، فإذا مات على تلك الحال نال

(١) رواه البخاري في كتاب «العمل» باب الحرص على الحديث.

(٢) «فتح الباري» ص [١٩٤] الجزء الأول، انظر كتاب «حقيقة التوحيد» للشيخ/ محمد حسان.

ذلك... وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليدًا أو عادة ولم تخالط حلاوة الإيمان بشاشة قلبه.

وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء كما في الحديث، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، وغالب أعمال هؤلاء إنما هي تقليد واقتداء بأمثالهم وهم من أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذا الحال مصرًا على ذنب أصلًا، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمره الله وهذا هو الذي يحرمُ على النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك.

فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص، وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين، لا تترك له ذنبًا إلا مُحِي عنه كما يمحو الليل النهار.

وإنما يخاف على المُخلِص أن يأتي سيئة راجحة فيضعف إيمانه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر فيضف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف قول «لا إله إلا الله» فيمتنع الإخلاص بالقلب فيصير المتكلم كالهاذي أو النائم، أو من يحسن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعم وحلاوة.

وفي حديث عتبان بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»[1]، فالإخلاص يضاد الإشراك، فمن

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في كتاب «الصلاة» باب المساجد ص [٤٢٥]، وأخرجه مسلم في كتاب «المساجد» ص [٢٦٣]، [٣٣] باب الرخصة في «التخلف عن الجماعة بعذر».

ليس مخلصًا فهو مشرك والشرك درجات منه ما هو أكبر ومنه ما هو أصغر ومنه ما هو خفي، والإنسان قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عبادته عن شيء من هذه الأمور فلذلك قيل: من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجا؛ وذلك لعزة الإخلاص، وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب؛ لأن الخالص هو الذي لا باعث له إلا طلب التقرب من الله تعالى[1].

نعم؛ إن إخلاص التوحيد أمر عظيم فهو تجريد التوحيد وتحقيقه وتنقيته وتصفيته من كل شوائب الشرك والبدع وصرف العبادة لله وحده وكمال الاتباع لرسوله ﷺ وتحكيمه في كل شيء من الرضا الكامل بحكم الله ورسوله.

- الفائدة السادسة - تعظيم العمل الصغير:

والإخلاص من فوائده أيضًا أنه يعظم العمل الصغير حتى يصير كثيرًا كالجبل كما أن الرياء يحقر العمل الكبير حتى لا يوزن عند الله شيء. ويكون هباءً، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

قال ابن المبارك: رُبَّ عمل صغير تكثره النية، ورُبَّ عمل كبير تُصغرهُ النية[2]، ثم إن الإخلاص مما يحمي الإنسان نفسه من الشيطان فهو حصن حصين فذلك الشيطان نفسه قال الله سبحانه وتعالى لما أخذ العهد على نفسه أن يغوي عباده قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإذًا الشيطان لا يقدر على من تحصن بالإخلاص.

وقال معروف الكرخي يذكر نفسه: «يانفس أخْلصي تتخلصي».

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة المقدسي، تحقيق علي حسن عبد الحميد.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٠).

- الفائدة السابعة - الإخلاص أساس أعمال القلوب:

وكذلك فإن الإخلاص هو أساس أعمال القلوب وأعمال الجوارح تبعٌ ومكملة لذلك.

- الفائدة الثامنة - أنه سبب من أسباب النجاة من الفتن:

فالمرء ينجو من الفتن بالإخلاص، ويجعل له حِرزًا من الشهوات ومن الوقوع في براثن أهل الفسق والفجور، لذلك نجى الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من فتنة امرأة العزيز ولم يسقط في واد الفسق والفجور، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

* * *

ذكر بعض صفات المخلصين

أولًا- السعي على ترك النفاق:

بحيث تتساوى سريرتهم وعلانيتهم في الخير، وتقليل أعمالهم في عيونهم من حيث كسبهم لها، وتقديم أعمال الآخرة دائمًا على أعمال الدنيا.

ثانيًا- الحرص على إخفاء الأعمال الصالحة:

عن عبد الله بن المبارك قال: أخبرنا ابن عون عن إبراهيم قال: إن كانوا ليكرهون إذا اجتمعوا أن يخرج الرجل أحسن حديثه أو أحسن ما عنده[(١)].

وعن هلال بن يساف قال: قال عيسى بن مريم: إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم، فإذا أعطى بيمينه فليخف من شماله، وإذا صلى فليرخ ستر بابه، فإن الله تعالى يقسم الثناء كما يقسم الرزق[(٢)].

اعلم أخي أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد نص نصًّا صريحًا على أفضلية صدقة السر على صدقة العلانية في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وقد خص العلماء أفضلية الإخفاء بالنوافل دون الفرائض[(٣)].

---

(١) إسناده صحيح: رواه ابن أبي شيبة (٩/ ١١)، ووكيع في «الزهد» [٣١٩]، وأبو خيثمة في «العلم» وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٩٩)، وغيرهم كثير، انظر كتاب «الزهد» للإمام شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك برقم [١٣٩]، ط. البصيرة.

(٢) إسناده صحيح إلى هلال بن يساف والأثر من أهل الكتاب، ورواه وكيع في «الزهد» [٣٤٤]، وأحمد في «الزهد» [٥٧]، عن سفيان عن منصور وعبد الله بن المبارك في «الزهد» [١٥٠]، عن هلال بن يساف.

(٣) «تفسير القرطبي».

واستثنى بعض العلماء أولئك الذين يُقتدى ويُتأسى بهم، ويكون لأفعالهم تأثير في الناس، فهؤلاء يستحب في حقهم الإعلان دون الإسرار بشرط أن يأمنوا على أنفسهم الرياء، ولا يكون ذلك إلا لقوة إيمانهم وصدق يقينهم.

ثالثًا- النظر في عواقبهم الأخروية:

اعلم أخي، حتى توفق في دفع هذا الداء العضال (الرياء) لابد لك من النظر في عاقبة الأمر، وإن كل عمل لم يرد به وجه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فهو وبالٌ عليك يوم القيامة.

وفي يوم القيامة يهتك الله ستر المرائين ويفضحهم جزاء كذبهم، وفي الحديث الصحيح يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سمّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به**»(١).

رابعًا- لا يرضون الخطأ الذي يمسُّ الدين أو أهله:

بل يردونه ويلتمسون العذر لمن قال به، إن كان ممن يعتذر له، وكثرة سترهم لإخوانهم المسلمين، وشدة مناقشتهم في مقام الورع، ولا يحبون أن تظهر عيوب الآخرين، ويكتمون الأسرار، ولا يبلغون أحدًا ما يسمعونه في حقه، ويتركون معاداة الناس، ويكثرون من مداراتهم، وعدم مقابلة أحد بسوء، فهم لا يعادون أحدًا من المسلمين.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يدخل الجنة قتّات**»(٢)، وفي رواية مسلم «**نمَّام**».

خامسًا- رقة قلوبهم، وكثرة بكائهم على تفريطهم في حق الله تعالى:

لعل الله يرحمهم، وكثرة الاعتبار والبكاء والاهتمام بأمر الموت، حتى تزلزل قلوبهم.

قال إبراهيم بن الأشعث: ما رأيت أحدًا كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله، أو ذكره عنده، أو سمع القرآن، ظهر به من الخوف، والحزن، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من يحضره، وكان دائم الحزن، شديد الفكرة، ما رأيت رجلًا يريد الله

(١) رواه البخاري، ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم، ولمسلم برواية «نمام».

بعلمه وعمله، وأخذه وعطائه، ومنعه وبذله، وبغضه وحبه، وخصاله كلها غيره، وكنا إذا خرجنا معه جنازة لا يزال يعظ ويذكر ويبكي، كأنه مودع أصحابه ذاهب إلى الآخرة، حتى يبلغ المقابر، فيجلس مكانه بين الموتى من الحزن والبكاء، حتى يقوم وكأنه رجع من الآخرة، يخبر عنها[1].

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا أبو جعفر الحذاء، سمعت الفضيل يقول: أخذت بيد سفيان بن عيينة في هذا الوادي فقلت: إن كنت تظن إنه بقي على وجه الأرض شر مني ومنك، فبئس ما تظن.

قال محمد بن ناجية: صليت خلف الفضيل، فقرأ (الحاقة) في الصبح فلما بلغ إلى قوله ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ غلبه البكاء، فسقط ابنه علي مغشيًا عليه.

سادسًا- ذم الشهرة:

كان سعد بن أبي وقاص في إبله فجاءه ابنه عمرُ فلما رآهُ سعد قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الراكب، فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم، فضرب سعدٌ في صدره، فقال: اسكت سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**»[2].

عن أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن أغْبطَ أوْليائِي عندي لمُؤمنٌ خَفِيفُ الحَاذِ ذُو حظٍّ من الصلاةِ، أحسَنَ عَبَادَةَ ربِّهِ وأطاعهُ في السِّرِ، وكَانَ غامضًا في الناس، لا يُشَارُ إليه بالأصابع، وكان رِزْقُه كَفَافًا فَصَبَرَ على ذلك، ثُمّ نقر بيدهِ فقال: عُجِّلت مَنِيتُهُ قَلَّت بَوَاكِيهِ قل تُراثُهُ**»[3].

---

(١) ترجمة الفضيل بن عياض «سير أعلام النبلاء» الجزء السابع ص [٣٩٣] ط. دار الحديث.

(٢) صحيح: رواه الإمام مسلم واللفظ له، وأحمد [٢٥٥١٥]، والترمذي [٢٣٤٧]، وابن ماجة [٤١١٧] وغيرهم.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٥)، الترمذي [٢٣٤٧]، ابن ماجة [٤١١٧]، وغيرهم، إسناده ضعيف قال عنه شيخي الشيخ حلمي حفظه الله: إسناده ضعيف في كتاب «صيحة نذير».

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُونوا يَنَابيع العِلم، ومَصَابيح الهُدى، أحْلاسَ البُيُوت سُرج الليل، جُدُد القلُوب خُلقان الثياب، تُعرفُون في أهل السماءِ وتُخفون في أهل الأرض[١].

قال عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أحب عباد الله إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم، يجمعون يوم القيامة إلى عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢].

عن الحكم بن المبارك، حدثنا أبو عَوَانة، عن مغيرة قال: كان إبراهيم لا يبتدئ الحديث حتى يُسأل[٣].

عن محمد بن العلاء، حدثنا ابن إدريس قال: سمعتُ هارون بن عنترة، عن سُليم بن حنظلة قال: أتينا أُبي بن كعب لنتحدث إليه، فلما قام، قمنا ونحن نمشي خلفه، فرهقنا عُمر، فتبعه فضربه عمر بالدرة، قال فاتقاه بذراعيه، فقال: يا أمير المؤمنين، ما نصنع؟ قال أو ما ترى فتنة للمتبوع مذلة للتابع؟[٤].

وقال عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كفى بالمرء من الشر أن يشار إليه بالأصابع، وفي رواية: كفى بالمرء من الإثم أن يشار إليه بالبنان[٥].

وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كفى بالمرء من الشر أن يشار إليه بالأصابع في دينه[٦].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» [٥١١١]، وابن أبي الدنيا في «التواضع» [١١]، وأبو نعيم في «الحلية» [٥١١١].

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» [٥٣٢]، وأحمد في «الزهد» [٢٧٧]، والبخاري في «الكبير» (٤/ ١٣٠)، والآجري في «الغرباء» وابن أبي الدنيا في «التواضع» وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥).

(٣) أخرجه الدارمي في سننه برقم [٥٢٠].

(٤) أخرجه الدارمي في سننه برقم [٥٢٣].

(٥) رواه الطبراني.

(٦) رواه البيهقي في «الشعب»، والديلمي.

وقال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بحسب امرئ من الشر أن يشار إليه بالأصابع في دينٍ أو دنيا(١).

عن عبد الرحمن بن صالح، حدثنا الحسين بن علي الجعفي: عن معقل بن عبيد الله الجزري قال: كانت العلماء، إذا التقوا تواصوا بهذه الكلمات، وإذا غابوا كَتب بها بعضُهم إلى بعضٍ إنه من أصلح سريرته أصلح الله علانيتهُ، ومن أصلح ما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن اهتم بأمر آخرتهُ كفاه الله أمر دنياه(٢).

وعن سريج بن يونس، حدثنا الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن بلال بن سعد قال: لا تكن وليًّا لله في العلانية وعدوه في السريرة(٣).

عن محمد بن عثمان العجلي، حدثنا أبو أسامة، عن الربيع قال: وعظ الحسن يومًا، فانتحب رجل، فقال الحسن: ليسألنك الله يوم القيامة ما أردت بهذا(٤).

عن بشر بن معاذ، عن شيخ من قريش قال: قال عمر بن عبد العزيز: يا معشر المستترين اعلموا أن عند الله مسألة فاضحة، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣](٥).

عن محمد بن علي بن الحسن، عن إبراهيم بن الأشعث، عن فضيل بن عياض قال: سمعته يقول: خير العمل أخفاه، أمنعُه من الشيطانِ، وأبعدهُ من الرياء(٦).

---

(١) رواه الطبراني، وابن أبي الدنيا.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخلاص» برقم [٢٥].

(٣) ابن أبي الدنيا، والمزي في «تهذيب الكمال».

(٤) عن ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخلاص والنية» برقم [٢٩].

(٥) ابن أبي الدنيا.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا برقم [٣٠] في كتاب «الإخلاص».

عن محمد بن يوسف، عن سفيان، عن صالح قال: سمعت الشعبي قال: وددت أني نجوت من عمل كفافًا لا لي ولا عليّ[١].

قال الحسين بن زياد المروزي: سمعت فضيلًا يقول: لو حلفت أني مرائي كان أحب إليَّ من أن أحلف أني لست بمراء، ولو رأيت رجلًا اجتمع الناس حوله، لقلت هذا مجنون، من الذي اجتمع الناس حوله، لا يحب أن يُجَوِّدَ كلامه لهم[٢].

قال أحمد بن حنبل: حدثنا أبو جعفر الحذاء: سمعت الفضيل يقول: أخذت بيد سفيان بن عيينة في هذا الوادي فقلت: إن كنت تظن أنهُ بقي على وجه الأرض شر منّي ومنك فبئس ما تظن[٣].

وعن فضيل رأى قومًا من أصحاب الحديث يمرَحون ويضحكون فناداهم: يا ورثة الأنبياء -مهلًا ثلاثًا- إنكم أئمة يقتدى بكم[٤].

عن نافع قال: كان أكثرنا لا يعرف لعمر ولا ابنه البر حتى يقولا أو يعملا[٥].

قال السَّرِّي بن المغلس السَّقطي الإمام القدوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مخافة أن أُعرف، ما أحب أن أموت حيث أُعرف، أخاف لا تقبلني الأرض فأفتضح.

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه برقم [٥٣١].

(٢) «سير أعلام النبلاء» ص [٤٠١].

(٣) «سير أعلام النبلاء».

(٤) «سير أعلام النبلاء».

(٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات»، وأبو داود في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية»، وقال عنه شيخي الشيخ/ حلمي الرشيدي - حفظه الله -: ضعيف الإسناد في تحقيق كتاب «مناقب عمر بن الخطاب».

قال عبد الرحمن بن مهدي -الإمام المجود أسد الحفاظ-: كنت أجلس يوم الجمعة في مسجد الجامع فيجلس إليَّ الناس، فإذا كانوا كثيرًا فرحت وإذا قلوا حزنت فسألت بشر بن منصور فقال: هذا مجلس سوء لا تعد إليه.

وها هو سيد التابعين أويس القُرني قد فرَّ من الشهرة والذي قال عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إن رجلًا من اليمن يُقال له أُويس القرني، فمن لقيه منكم فمروه أن يستغفرلكم**» لقد هرب من المدينة وبكى لما عرفه عمر وغيره مخافة الشهرة[1].

سابعًا- التواضع:

قال صاحب المنازل: «التواضع أن يتواضع العبد لصولة الحق»[2].

يعني: أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له، والذل والانقياد، والدخول تحت رِقِّهِ بحيث يكون الحق متصرفًا فيه تصرف المالك في مملوكه.

وها هو قول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي: سكينة ووقارًا متواضعين، غير أشرين، ولا مرحين ولا متكبرين.

قال الحسن: عُلماء وحُلماء، وقال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون وإن سفه عليهم حلموا.

---

(١) راجع «السير» (٤/ ٢٤-٢٥).

(٢) «مدارج السالكين» الجزء الثاني ص [٢٧١].

وإليك أخي الحبيب بعض أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي تحث على التواضع:

عن عياض بن حماد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد**»(١).

وهذا هو عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمير المؤمنين خرج إلى الشام ومعه أبو عبيدة بن الجراح فأتوا على مخاطبة، وعمر على ناقة لهُ، فنزل وخلع خُفَّيه، فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فخاض فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك، فقال: أوه، لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالًا لأمة محمد، إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا؟ قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكِبر بَطَرُ الحق وغَمْط الناس**»(٣).

(بطر الحق) بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة جميعًا: هو دفعه ورَدُّه.

(وغمط الناس): بفتح العين المعجمة وسكون الميم وبالطاء المهملة: هو احتقارهم وازدراؤهم وكذلك غمصهم بالصاد المهملة وقد رواه الحاكم، فقال: ولكن الكبر من بطر الحق، **وازدراء الناس**، ومن العلامات التي يتصف بها المخلصون جملةً دون تفصيل.

١- الحماس للعمل للدين.

٢- أن يكون عمل السر أكبر من عمل العلانية.

٣- المبادرة للعمل واحتساب الأجر.

---

(١) رواه مسلم، وأبو داود، وابن ماجة.

(٢) رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما.

(٣) رواه مسلم والترمذي.

٤- الصبر والتحمل وعدم التشكي.

٥- إتقان العمل في السر والعلانية.

٦- الإكثار من العمل في السر والعلانية.

هذا كله من علامات الإخلاص في العبد، وهذا بعض ما تيسّر لي جمعه من شتات بطون الكتب الأمهات، فالله أسأل أن ينفعني به في الدنيا والآخرة وأن ينفع إخواني المسلمين جميعًا، وأن يكون هذا الجهد البسيط خالصًا لله تعالى، ولا يجعل فيه لأحد شيء حتى لا يكون هذا العمل سببًا في نجاة الغير وحجة على كاتبه يوم القيامة، فالله أسأل أن يكون هذا الجهد في ميزان حسناتنا فهو حسبنا ونعم الوكيل وبه المستعان وعليه التكلان.

* * *

ouarkandi.com

حقيقة الإخلاص

قال صاحب المنازل[١]: الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب، أي: لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم والهروب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب التي عقد متفرقاتها هو إرادة ما سوى الله بعمَله، كائنًا ما كان[٢].

وقيل لسهل: أي شيء أشدُّ على النفس؟ فقال: الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب[٣].

وقال مَكحُول: ما أخلص عبد قط أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبِهِ على لسانه[٤].

وقال الجندي: الإخلاص سِرٌّ بين الله وبين العبد لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله[٥].

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن.

والرياء: أن يكون ظاهره خيرًا من باطنه.

والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

---

(١) الإمام الهروي.

(٢) «مدارج السالكين» ص [٧٧].

(٣) «مدارج السالكين».

(٤) «مدارج السالكين».

(٥) «مدارج السالكين».

درجات الإخلاص[1]

قال الإمام الهروي في المنازل، وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: إخراج رؤية العمل عن العمل، والخلاص من طلب العوض على العمل والنزول عن الرضى بالعمل.

يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات:

الآفة الأولى - رؤيته وملاحظته.

الآفة الثانية - طلب العوض عليه.

الآفة الثالثة - رضاه به وسكونه إليه.

ففي هذه الدرجة يتخلص من هذه البلية، فالذي يخلصه من رؤية عمله مشاهدته لمنة الله عليه، وفضله وتوفيقه له، وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

فهنا ينفعه شهود الجبر، وأنه آلة محضة، وأن فعله كحركات الأشجار، وهبوب الرياح، وأن المحرك له غيره، والفاعل فيه سواه وأنه ميت -والميت لا يفعل شيئًا- وأنه لو خلى ونفسه لم يكن من فعله الصالح شيء ألبته؛ فإن النفس جاهلة ظالمة، طبعها الكسل، وإيثار الشهوات، والبطالة، وهي منبع كل شر، ومأوى كل سوء، وما كان هكذا لم يصدر منه خير، ولا هو من شأنه.

فالخير الذي يصدر منها: إنما هو من الله وبه، لا من العبد ولا به، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

---

(١) «مدارج السالكين».

وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ٧].

فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته، وإحسانه ونعمته وهو المحمود عليه.

فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة، كرؤيته لصفاته الخلقية من سمعه وبصره وإدراكه وقوته بل من صحته، وسلامة أعضائه، ونحو ذلك فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله.

فعلاج هذه الآفة الأولى: معرفة ربه، ومعرفة نفسه.

والعلاج من الآفة الثانية: «طلب العوض». علمه بأنه عبد محض والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضًا ولا أجرة إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجرة والثواب مِنَّته، وإحسان إليه، وإنعامه عليه، لا معاوضة إذ الأجرة إنما يستحقها الحر، أو عبد الغير فأما ما عبد نفسه فلا.

والعلاج من الآفة الثالثة: «رضاه بعمله وسكونه إليه»: أمران:

أحدهما: مطالعة عيبه وآفاته، وتقصيره فيه، وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان. فكل عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قَلَّ، وللنفس فيه حظ

سُئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن التفات الرجل في صلاته؟ فقال: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**»(١).

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي كلهم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

وقال عبد الله بن مسعود: لا يجعل أحدكم للشيطان حظًّا من صلاته، يرى أن حقًّا عليه أن لا ينصرف إلا عن يمينه[١].

فجعل هذا القدر اليسير النذر حظًّا ونصيبًا للشيطان من صلاة العبد فما الظن بما فوقه؟

أما حظ النفس من العمل: فلا يعرفه إلا أهل البصائر والصادقون.

الثاني- علمه بما يستحقه الرب جل جلاله: من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقًّا، وأن يرضى بها لربه فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين، ويستحي من مقابلة الله بعمله.

فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعوده إلى الله يحول بينه وبين الرضا بعمله، والرضا عن نفسه.

وكان بعض السلف يصلي في اليوم والليل أربعمائة ركعة، ثم يقبض على لحيته ويهزها ويقول لنفسه: يا مأوى كل سوء، وهل رضيتك لله طرفة عين؟

وقال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه.

ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور.

قال صاحب المنازل: الهروي رحمه الله تعالى[٢].

---

(١) حديث متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٨٠).

الدرجة الثانية - الخجل من العمل مع بذل المجهود وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود ورؤية العمل في نور التوفيق من عين الجود؟

هذه ثلاثة أمور:

أولًا- خجله من عمله، وهو شدة حياؤه من الله إذ لم ير ذلك العمل صالحًا مع بذل مجهوده فيه قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هو الرجل يصوم، ويصلي، ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه**»(١)، وقال بعضهم: إني لأصلي ركعتين فأقوم عنهما بمنزلة السارق أو الزاني الذي يراه الناس، حياء من الله عَزَّوَجَلَّ، فالمؤمن: جمع إحسانًا في مخافته، وسوء ظنه بنفسه.

والمغرور: حَسَن ظنه بنفسه مع إساءته.

ثانيًا- توفير الجهد باحتمائه من الشهود أي، يأتي بجهد الطاقة في تصحيح العمل محتميًا عن شهوده منك وبك.

ثالثًا- أن تحتمي بنور التوفيق الذي ينور الله به بصيرة العبد، فترى في ضوء ذلك النور أن عملك من عين جوده لا بك ولا منك.

فقد اشتملت هذه الدرجة على خمسة أشياء: عمل، واجتهاد فيه، وخجل، وحياء من الله عَزَّوَجَلَّ، وصيانة عن شهود منك، ورؤيته من عين جود الله سبحانه ومنه.

الدرجة الثالثة - قال صاحب المنازل: هي إخلاص العمل بالخلاص من العمل تدعه يسير سير العلم، وتسير أنت مشاهدًا للحكم.

---

(١) حديث حسن أخرجه أحمد (ج٦)، ص [١٥٩]، وابن ماجة (ج٢) ص [٤١٩٨]، كلاهما من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى[1]: ومعنى كلامه: أنك تجعل عملك تابعًا للعلم، موافقًا له، مؤتمًّا به، تسير بسيره وتقف بوقوفه، وتتحرك بحركته، نازلًا منازله، مرتويًا من موارده، ناظرًا إلى الحكم الديني الأمري متقيدًا به، فعلًا وتركًا وطلبًا وهربًا، ناظرًا إلى ترتب الثواب والعقاب عليه سببًا وكسبًا ومع ذلك فتسير أنت بقلبك، شاهدًا للحكم الكوني القضائي، الذي تنطوي فيه الأسباب والمسببات، والحركات والسكنات، ولا يبقى هناك غير محض المشيئة وتفرد الرب وحده بالأفعال، ومصدرها عن إرادته ومشيئته فيكون قائمًا بالأمر والنهي: فعلًا وتركًا، سائرًا بسيره، وبالقضاء والقدر إيمانًا وشهودًا وحقيقة، فهو ناظرٌ إلى الحقيقة قائم بالشريعة، وهذا الأمر إنما هو عبودية هاتين الآيتين: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الإنسان: ٢٩-٣٠].

فترك العمل يسير سير العلم: مشهد ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ وسير صاحبه مشاهدًا للحكم: مشهد ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

وأما قوله: (حرًّا من رق الرسم) فالحرية التي يشيرون إليها[2]، هي عدم الدخول تحت عبودية الخلق والنفس والدخول تحت رق عبودية الحق وحده.

ومرادهم بالرسم: ما سوى الله، فكله رسوم فإن الرسوم هي الآثار ورسوم المنازل والديار: هي الآثار التي تبقى بعد سكانها والمخلوقات بأسرها في منزل الحقيقة رسوم وآثار للقدرة أي: فتخلص نفسك من عبودية كل ما سوى الله وتكون بقلبك مع القادر

(١) «مدارج السالكين».

(٢) ابن القيم في «المدارج» ص [٨١].

الحق وحده، لا مع آثار قدرته التي هي رسوم فلا تشتغل بغيره لتشغلها بعبوديته، ولا تطلب بعبوديتك له حالًا ولا مقامًا، ولا مكاشفة ولا شيئًا سواه.

فهذه أربعة أمور:

- بذل الجهد.
- تحكيم العلم.
- النظر إلى الحقيقة.
- التخلص من الالتفات إلى غيره. والله الموفق والمعين.

الإخلاص: عدم انقسام المطلوب، **والصدق**: عدم انقسام الطلب.

فحقيقة الإخلاص: توحيد المطلوب، وحقيقة الصدق: توحيد الطلب والإرادة، ولا يثمران إلا بالاستسلام المحض للمتابعة، فهذه الأركان الثلاثة: هي أركان السير، وأصول الطريق التي من لم يبنِ عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع، وإن ظن أنه سائر، فسيره إما إلى عكس جهة مقصوده، وإما سير المقعد والمقيد، وإما سير صاحب الدابة الجموح كلما مشت خطوة إلى قدام رجعت عشرة إلى خلف.

فإن عَدِم الإخلاص والمتابعة انعكس سيره إلى خلف، وإن لم يبذل جهده ويجد طلبه سار سير المقيد، وإن اجتمعت له الثلاثة فذلك الذي لا يجارى في مضمار سيره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

مكانة الإخلاص

من أجل ذلك فقد كان سلفنا الصالح من أشد الناس خوفًا على أعمالهم من أن يخالطها الرياء أو تشوبها شائبة الشرك فكانوا - رحمهم الله - يجاهدون أنفسهم في أعمالهم وأقوالهم كي تكون خالصة لوجه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

لذا عباد الله كان الصدق في الإخلاص من أشق الأمور على النفوس، وهذه المشقة لا يعاني منها عوام الناس ودهماؤهم دون العلماء والأئمة والدعاة، بل كثير من العلماء والصالحين لاقوا هذه المعاناة[1].

ولذلك لما حدَّث يزيد بن هارون بحديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى». والإمام أحمد جالس، فقال الإمام أحمد ليزيد: يا أبا خالد: هذا والله هو الخناق، أن تجعل عملك خالصًا لوجه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى[2].

وقال سفيان الثوري: ما عالجت شيئًا عليّ أشد من نفسي، مرة عليَّ، ومرة لي[3].

وقيل: التقى سفيان والفضيل، فتذاكرا، فبكيا، فقال سفيان: إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظم مجلس جلسناه بركة، فقال له الفضيل: لكني أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه شؤمًا، أليس نظرت إلى أحسن ما عندك، فتزينت به لي، وتزينت لك، فعبدتني وعبدتك، فبكى سفيان حتى علا نحيبه، ثم قال: أحييتني، أحياك الله.

---

(١) أ.د/ عمر سليمان في «الإخلاص».

(٢) خالد الراشد «المؤمن بين الإخلاص والرياء».

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٦٣٩).

ولذلك كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرًا ما يدعو بهذا الدعاء: «**يا مُقَلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك**»(١)، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر في قسمه ويقول: «**لا ومقلب القلوب**»(٢)، فالقلوب كثيرة التقلب والتحول في قصودها ونياتها، ومن شاء أن يعلم ذلك فلينظر إلى تحويل قصده ونيته في ساعة واحدة، يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من قلب إلا وهو معلق بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه، والميزان بيدي الرحمن، يرفع أقوامًا، ويخفض آخرين، إلى يوم القيامة**»(٣).

ويقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقلب ابن آدم أشد تقلبًا من القِدر إذا استجمعت غليانًا**»(٤).

اعلم أخي -علمني الله وإياك - أن السبب في تقلب القلب يعود إلى كثرة الواردات التي ترد على القلوب والقلب كما يقول سهل بن عبد الله: «رقيق تؤثر فيه الخطرات»(٥).

واعلم أخي، أن الشيطان عنده القدرة على أن يخالط القلب ويصل إليه، ففي الحديث: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»(٦)، وهو يوسوس للإنسان بالشر، فإذا ذكر العبد ربه اختفى الشيطان وهرب، والشيطان يزين المعاصي والآثام للعبد، يحركه إلى فعلها وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

---

(١) الترمذي وابن ماجة والحاكم في «المستدرك» وهو صحيح، ذكره الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٧٩٨٧]، و «المشكاة» برقم [١٠٢]، والسنة برقم [٢٢٥]، وقال عنه الشيخ الألباني في «المشكاة»: هو على شرط مسلم.

(٢) صحيح البخاري انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٣٧٧).

(٣) صحيح، رواه أحمد في «المسند» وابن ماجة، والحاكم في «المستدرك» عن النواس وفي «السنة» لابن عاصم [٢١٩]، وابن حبان في صحيحه، والأجري والشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٥٧٤٧].

(٤) أحمد في «مسنده» والحاكم في «المستدرك» عن المقداد.

(٥) انظر: أ.د/ عمر سليمان «الإخلاص».

(٦) رواه أحمد في «المسند» والبخاري ومسلم وأبو داود من حديث أنس.

عاقبة الإخلاص لله

قوله[1]، فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شَانَهُ الله.

هذا شقيق كلام النبوة، وهو جدير بأن يخرج من مشكاة المحدث الملهم، وهاتان الكلمتان من كنوز العلم، ومن أحسن الإنفاق منهما نفع غيره، وانتفع غاية الانتفاع، فأما الكلمة الأولى فهي منبع الخير وأصله، والثانية: أصل الشر وفصله؛ فإن العبد إذا خصلت نيته لله تعالى وكان قصده وهمه وعمله لوجهه سبحانه كان الله معه؟ فإنه سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، ورأس التقوى والإحسان خلُوص النية لله في إقامة الحق، والله سبحانه لا غالب له، فمن كان معه فمن الذي يغلبه أو يناله بسوء؟ فإن كان الله مع العبد فمن يخاف؟ وإن لم يكن فمن يرجو، وبمن يثق؟ ومن ينصره من بعده؟

فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولًا وكان قيامه بالله ولله لم يقم له شيء، ولو كادته السموات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها، وجعل له فرجًا ومخرجًا، وإنما يؤتى العبد من تفريطه وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة، وفي اثنين منها، أو في واحدة فمن كان قيامه في باطل لم ينصر، وإن نصر نصرًا عارضًا فلا عاقبة له وهو مذمُوم مخذول، وإن قام في حق لكن لم يقم فيه لله وإنما قام لطلب محمدة والشكور والجزاء من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولًا، والقيام في الحق وسيلة إليه فهذا لم تضمن له النصرة؛ فإن الله إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه، فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن

---

(١) قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نصر فبحسب ما معه من الحق؛ فإن الله لا ينصر إلا الحق، وإذا كانت الدولة لأهل الباطل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبدًا؛ فإن كان صاحبه محقًّا كان منصورًا له العاقبة، وإن كان مبطلًا لم يكن له عاقبة، وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعينًا به ومتوكلًا عليه مفوضًا إليه بريًّا من الحول والقوة إلا به فله من الخذلان وضعف النصر بحسب ما قام به من ذلك، ونكتة المسألة أن تجرد التوحيدين في أمر الله ألا يقوم له شيء ألبتة وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زمور الأعداء؟

قال الإمام أحمد: حدثنا داود، أنبأنا شعبة، عن واقد بن محمد بن يزيد، عن ابن أبي مُليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: من أسخط الناس برضا الله عَزَّوَجَلَّ كفاه الله الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله إلى الناس.

والعبد إذا عزم على فعل أمر فعليه أن يعلم، هل هو طاعة لله ام لا؟

فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلا أن يكون مباحًا يستعين به على الطاعة وحينئذ يصير طاعة، فإذا بان له أنه طاعة فلا يقدم عليه حتى ينظر هل هو معان عليه أو لا؟ فإن لم يكن معانا عليه فلا يقدم عليه فيذل نفسه، وإن كان معانًا عليه بقي عليه نظر آخر، وهو أن يأتيه من بابه، فإن أتاه من غير بابه أضاعه، أو فرط فيه، أو أفسد منه شيئًا فهذه الأمور الثلاثة أصل سعادة العبد وفلاحه، وهي معنى قول العبد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فأسعد الخلق أهل العبادة والاستعانة والهداية إلى المطلوب، وأشقاهم من عدم الأمور الثلاثة، ومنهم من يكون له نصيب من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصيبه من ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ معدوم أو ضعيف، فهذا مخذول مهين محزون، ومنهم من يكون نصيبه من ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قويًّا، ونصيبه من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ضعيفًا أو مفقودًا، فهذا له نفوذ وتسلط وقوة، ولكن لا عاقبة له، بل عاقبته أسوأ عاقبة، ومنهم من يكون له

نصيب من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولكن نصيبه من الهداية إلى المقصود ضعيف جدًّا، كحال كثير من العباد والزهاد الذين قل عملهم بحقائق ما بعث الله به ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الهدى ودين الحق وقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه»، إشارة إلى أنه لا يكفي قيامه في الحق لله إذا كان على غيره، حتى يكون أول قائم به على نفسه، فحينئذٍ يقبل قيامه به على غيره، وإلا فكيف يقبل الحق ممن أهمل القيام به على نفسه؟

وخطب عمر بن الخطاب يومًا وعليه ثوبان، فقال: أيها الناس ألا تسمعون؟ فقال سلمان: لا نسمع، فقال عمر: ولم يا أبا عبد الله؟ قال: إنك قسمت علينا ثوبًا وعليك ثوبان: فقال: لا تعجلن يا عبد الله! فلم يجبه أحد، فقال: يا عبد الله بن عمر! فقال: لبيك يا أمير المؤمنين، فقال: نشدتك الله الثوب الذي ائتزرت به أهو ثوبك؟ قال: نعم، اللهم نعم، فقال سلمان: أما الآن فقل نسمع[1]. انتهى

* * *

(١) «أعلام الموقعين» ابن قيم الجوزية.

من قصص المخلصين وسيرهم

لقد مر في تاريخ الأمة ولله الحمد كثير من المخلصين، كانت سيرتهم نبراسًا لمن بعدهم وقدوة وخيرًا، ولذلك أبقى الله عَزَّوَجَلَّ سيرتهم وذكرهم حتى يقتدِي بهم من بعدهم، وعلى رأس هؤلاء الأنبياء، وعلى رأسهم النبي محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وكذلك حواري الأنبياء، وعلى رأسهم الصحابة الذين فتحوا البلاد بسبب إخلاصهم في الجهاد لله عَزَّوَجَلَّ، ودخل العباد في دين الله عَزَّوَجَلَّ بسببهم، ومن بعدهم من التابعين وتابعيهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لقوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمير، تكرمة الله لهذه الأمة**»[(١)].

(١) رواه أحمد في «المسند» والإمام مسلم في «صحيحه» عن جابر والبخاري في «تاريخه» وذكره الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٧٢٩٣].

قصة أصحاب الأخدود

وإخلاص الغلام في الثبات على الحق حتى الممات

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١-١٠].

قال الإمام أحمد (٦/ ١٦ و١٧): حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب: أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني كبرت سني وحضر أجلي، فادفع إليَّ غلامًا فلأعلمه السحر، فدفع إليه غلامًا فكان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه، وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر.

قال: فبينما هو آت يومًا إذا أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس، فلا يستطيعون أن يجوزوا فقال: اليوم أعلم أمر الساحر أحب إلى الله أم أمر الراهب، قال: فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها، ومضى الناس فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل عليّ فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء، ويشفيهم وكان جليسٌ للملك فعمي فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني ولك ما ههنا

أجمع فقال: ما أنا أشفى أحدًا، إنما يشفيه الله عَزَّوَجَلَّ فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي، قال: أنا؟ قال: لا، ربي وربك الله، قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام فأتى به، فقال: أي بني بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء، قال: ما أشفي أنا أحدًا إنما يشفي الله عَزَّوَجَلَّ قال: أنا، قال: لا قال أو لك رب غيري؟ قال ربي وربُك الله، قال: فأخذه أيضًا بالعذاب ولم يزل به حتى دلّ على الراهب فأُتي بالراهب فقال: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه وقال للغلام: ارجع عن دينك فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتُم ذروته فإن رجع عن دينه، وإلا فدهدهوه، فذهبوا به، فلما عَلُوا الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال كفانيهم الله، فبعث به من نفر في قرقور فقال: إذا لججتم البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فأغرقوه في البحر، فلججوا به البحر فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعلُ ما آمُرك به قتلتني وإلا فإنك لا تستطيع قتلي قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهمًا من كنانتي، ثم قل: بسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ففعل ووضع السهم في كبد القوس، ثم رماه وقال: بسم الله رب الغلام فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات.

فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخددت فيها الأخاديد، وأضُرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها.

قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة لها صبي ترضعه فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنك على الحق»[1]، كذا رواه الإمام أحمد.

وهذه قصة لغلام من جمع الأتقياء والأخفياء المُخلِصين ما نعلم لونَه ولا سنه ولا طوله ولا اسم أبيه.. ومع ذلك فهي قصة تدل دلالة واضحه على أن معاني الإيمان والصبر والثبات على الحق وعلى طاعة الله ليس لها سنٌّ معين، وأن الغلام بفطرته السويه كان يميل للراهب الذي كان يمثل الحق أكثر من ميله للساحر الممثل الباطل وفيها حرص الملك على استمرار صناعة السحر.

وهكذا شأن المنحرفين في كل عصر وفي كل وقت والذي تضيق فيه صدورُهم أهل الباطل بعرض الحق عليهم.

وانظر رعاك الله إلى إخلاص هذا الغلام الذي كان أمةً وحده إنه قدَّم كل ما يَملُك في سبيل تبليغ توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وتوصيل الحق للناس كافة في مقابل أن يدل الملك الكافر على الطريقة التي يقتل بها، فهذه دلالة واضحة على إخلاصه لله رب العالمين في تبليغ الدين وحرصه على نجاة الناس من كيد الفجار المعتدين، والخلاص من رق العبودية لغير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وهدايتهم إلى الطريق المستقيم في مقابل قتله، فيا لها من منزلة عالية من منازل المخلصين لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق [٩٧٥١]، ورواه الإمام أحمد (٦/ ١٦-١٧)، ومسلم برقم [٣٠٠٥]، والترمذي برقم [٣٣٤٠]، والنسائي في «الكبرى» [١١٦٦١]، والبزار برقم [٢٠٩١]، والطبراني [٧٣١٩].

موقف عمير بن الحُمام يوم بدر

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انطلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه**» فدنا المشركون، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**» فقال عُمَيرُ بن الحُمَام: يا رسول الله! جنةٌ عرضها السماوات والأرض؟ قال: «**نعم**» قال: بخٍ بخٍ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ**»(١)، قال: لا والله يارسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها قال: «**فإنك من أهلها**» فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن ثم قال: إن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياةٌ طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢).

وقد ذكر صاحب شفاء الصدور وغيره أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج على الناس يوم بدر، فحرضهم على القتال، ثم قال: «**والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجلًا صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مُدبر إلا أدخَلَه الله الجنة**» فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة وفي يده تمرات يأكلها: بخٍ بخٍ فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، فقذف التمر من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل وهو يقول:

ركضًا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

انظر إلى إخلاص هذا الذي صدق الله وأخلَص لله في طلبِ الشهادة فنال ذلك بشهادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) قوله: بخٍ بخٍ بفتح الباء وإسكان الخاء والمعجمة، وهي كلمة تقال عند تعظيم الأمر وتفخيمه، تعجبًا ويقال فيها: بخٍ بخٍ بالخفض منونًا، والقرن بفتح القاف والراء جميعًا هو جعبة السهام.

(٢) رواه مسلم.

موقف سعد بن خيثمة مع أبيه يوم بدر

عن سليمان بن أبان، أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه أن يخرجا جميعًا فذكروا ذلك للنبي ﷺ: فأمرهما أن يخرج أحدهما، فاستهما، فخرج سهم سعد.

فقال أبوه: آثرني بها يا بني! فقال: يا أبت إنها الجنة، لو كان غيرها آثرتك به، فخرج سعد مع النبي ﷺ فقتل يوم بدر، ثم قتل خيثمة من العام المقبل يوم أحد، رواه ابن المبارك عن رجل، عن عمرو بن الحارث[1].

سعد بن خيثمة بن مالك الأنصاري الأوسي، يكني أبا خيثمة وكان أحد النقباء بالعقبة، واستشهد يوم بدر انظر: (الإصابة في تمييز الصحابة) (٢/ ٢٥). خيثمة بن الحارث بن مالك بن كعب الأنصاري الأوسي قتل يوم أحد شهيدًا[2].

موقف عمرو بن الجموح

عن عمرو مولى ابن عباس رضي الله عنهم، قال: كان عمرو بن الجموح -شيخ من الأنصار- أعرج، فلما خرج النبي ﷺ إلى بدر قال لبنيه: أخرجوني، فذكروا للنبي ﷺ عرجه، فأذن له في المقام[3].

---

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه عن عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث.

(٢) انظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» على هامش «الإصابة» (١/ ٤٥٢-٤٥٣).

(٣) كتاب «الجهاد» ابن المبارك (١/ ١٠٠)، وسنن سعيد بن منصور، كتاب «الجهاد» باب ما جاء في فضل الشهادة (٢/ ٣-٢٣٢) قال عنه شيخي الشيخ الفاضل حلمي الرشيدي: إسناده حسن وخرجه الحاكم في «المستدرك» من طريق بن المبارك وقال الذهبي: مرسل وإسناده ضعيف (٣/ ١٨٩).

فلما كان يوم أحد خرج الناس، فقال لبنيه: أخرجوني، فقالوا: قد رخص لك رسول الله ﷺ وأذن، قال: هيهات، منعتمونيها بأُحد؟ فخرج، فلما التقى الناس، قال: يا رسول الله! أرأيت إن قتلت أطأ بعرجتي هذه الجنة، فقال: «نعم» قال: فوالذي بعثك بالحق لأطأن بها في الجنة اليوم إن شاء الله، فقال لغلام لهُ، كان معه يقال له سُليم: ارجع إلى أهلك قال: وما عليك أن أصيب اليوم خير معك؟ قال: فتقدم إذًا، قال: فتقدم العبد فقاتل، حتى قُتِل، ثم تقدم هو وقاتل حتى قتل رضي الله عنه، وهذا مرسل والقصة مشهورة رواها أصحاب السير وغيرهم.

وذكر أبو عمر بن عبد البر في هذا الخبر، قال: فأخذ سلاحه وولَّى، فلما ولَّى أقبل على القبلة، وقال: اللهم ارزقني الشهادة ولا تردني إلى أهلي خائبًا.

وفيه، ثم قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبره منهم عمرو بن الجموح، ولقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته وقتل هو وابنه خلاد**[1]، **حين انكشف المسلمون فقتلا جميعًا**»[2].

موقف عبد الله بن جحش يوم أحد

وعن سعيد بن المسيب قال: قال عبد الله بن جحش رضي الله عنه، يوم أحد: اللهُمَّ أُقسم عليك أن نلقى العدو، وإذا التقينا العدو أن يقتلوني، ثم يبقروا بطني ثم يمثلوا بي فإذا لقيتك سألتني فيم هذا؟ فأقول: فيك، فلقي العدو فَفُعِل ذلك به، قال ابن المسيب: فإني لأرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوله[3].

---

(١) خلاد بن عمرو بن الجموح شهد بدرًا وأُحدًا، الاستيعاب في معرفة الأصحاب على هامش الإصابة (١/ ٤١٧).

(٢) أخرجه ابن المبارك في كتاب «الجهاد» (١/ ٩٩)، وأحمد (٥/ ٢٩٩)، والبيهقي (٩/ ٢٤)، وسنده حسن.

(٣) رواه ابن المبارك وابن أبي شيبة، كلاهما من طريق علي بن زيد بن جدعان، عنه وهو مرسل.

ورواه الحاكم متصلًا من حديث إسحاق بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه ولفظه: إن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا تأتي ندعوا الله، فخلوا في ناحية فدعا سعد قال: يارب إذا لقينا القوم غدًا فلقيني رجلًا شديدًا بأسه، شديدًا حرده، فأقاتله فيك ويقاتلني، ثم ارزقني عليه الظفر حتى أقتله، فقام ابن جحش ثم قال: اللهم ارزقني رجلًا شديدًا حرده شديدًا بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني فإذا لقيتك غدًا قلت: يا عبد الله فيما جدع أنفك وأذناك؟ فأقول فيك وفي رسولك فتقول: صدقت: قال سعد: يا بني كانت دعوة عبد الله خيرًا من دعوتي، لقيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط[1]،

قوله شديدًا حرده: الظاهر إنه بالحاء المهملة المفتوحة وسكون الراء، ومعناه: شديدًا غضبه، والحرد: الغضب ويقال منه، أسد حارد، انظر إلى هذا البطل الذي يقول فإذا سألتني عن هذا أقول فيك فأخلص لله عَزَّوَجَلَّ في هذه الكلمة فبلّغه الله ما أراد.

موقف عبد الله بن رواحة يوم مؤتة

وقد روى ابن إسحاق وغيره أن جيش مؤتة لما حضر خروجهم ودّع الناس أمراءهم وسلموا عليهم فلما ودّع عبد الله بن رواحة من ودع بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة[2] فيكم، ولكني سمعت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]. فلست أدري كيف لي بالصدر بعد

(١) رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

(٢) قال في «الصحاح» (١/ ١٦٠)، الصبابة: رقة الشوق وحرارته.

الورود[١]، فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين، فقال عبد الله ابن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً ... وضربةً ذات فرغٍ تقذف الزبدا

أو طعنةً بيدي حرّان[٢] مجهزّة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مرّوا على جدثٍ[٣] ... أرشده الله من غاز وقد رشدا

قوله ضربة ذات فرغ -هو بفتح الفاء وسكون الراء بعدهما غين معجمة- قال ابن سيده: طعنة فرغاء وذات فراغ وساعة يسيل دمها.

وروى ابن إسحاق عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنت يتيمًا لابن رواحه فخرج في سفره ذلك فوالله إنه لمردفي على حقيبة رحلهِ وهو يسير ليلة إذ سمعته يقول:

إذا أديتني وحملت رحلي ... مسيرة أربع بعد الحساء[٤]

فشأنك أنعم وخلاك[٥] ذم ... ولا أرجع إلى أهلي ورائي[٦]

وجاء المسلمون وغادروني ... بأرض الشام مشتهر الثواء

وردك كل ذي نسب قريبٍ ... إلى الرحمن منقطع الإخاءِ

هنالك لا أبالي سُقيَ طلع ... ولا نخل أسافلها رواء

---

(١) قال في «الصحاح» (٢/ ٥٤٩)، ورد فلان ورودًا حضر.

(٢) قال في لسان العرب (١/ ٦٢٠) حرن، الحرون، يحرن في الحرب فلا يبرح أُستعير ذلك له وإنما أصله في الخيل.

(٣) قال في «الصحاح» (١/ ٧٧) الجدث القبر، والجمع أجدث وأجداث.

(٤) الحساء مياه مزاره بين الزبد ونخل يقال لمكانها: ذو حساء.

(٥) خلا خلوة وخلاء باله: اطمأن واستراح، وخلاك ذم أي لا يلحقك الذم على فعله.

(٦) إطالة المكان واثوى به! أطال الإقامة به.

فلما سمعتها بكيت، فخفقني بالدرَّة وقال: ما عليك يا لَكَع[1]، أن يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعبتي الرحل[2].

ثم مضوا حتى لقوا جموع الروم وغيرهم فاستشهد عبد الله بن رواحه، وأعطاه الله مناه، وأناله من الشهادة ما تمناه، وخَرَّج ابن عساكر بإسناده عن رجل من الأشعريين، قال: وشهدت المعركة -يعني في غزوة مؤتة- فاقتتلنا قتالًا شديدًا ولبس زيد درعًا له، وركب فرسًا وأخذ بيده الراية فقاتل، ثم نزل عن الفرس ونزع الدرع وقال: من يأخذ هذا؟ وقتل زيد، وأخذه جعفر، فلبس الدرع وركب الفرس وأخذ الراية، فتقدم فقاتل، قال: ونزل جعفر عن الفرس ونزع الدرع، وقال: من يأخذ هذا؟ وقتل، فتقدم عبد الله ابن رواحة فلبس الدرع وركب الفرس وأخذ الراية، قال: ولما انتهت إلى عبد الله بن رواحة قاتل ثم صنع ما صنع صاحباه، ثم نزل عن الفرس ونزع الدرع وقال: من يأخذ هذا؟.

موقف قيس بن شماس يوم اليمامة

وخَرَّج ابن المبارك، ومن طريقه البيهقي في «السنن» بإسناده، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مررت يوم اليمامة بثابت بن قيس بن شماس وهو يتحنَّط، فقلت: يا عم ألا ترى ما يلقى المسلمون وأنت ههنا؟ قال: فتبسم ثم قال: الآن أخي، فلبس سلاحه وركب فرسه حتى أتى الصف، فقال: أُفٍّ لهؤلاء وما يصنعون، وقال للعدو: أف لهؤلاء وما يعبدون، خلوا عن سبيله -يعني فرسه- حتى أصلي بحرها، فحمل فقاتل حتى قتل.

---

(١) اللَّكع: العبد ثم استعير في الذم.

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١٠/ ١١).

الحنوط -بفتح الحاء- هو: ما يحنط من الطيب للموتى خاصة، وتحنط إذا تطيب به، وإنما كانوا يفعلون ذلك -والله أعلم- لتوطين النفوس على الموت، وتصميم العزم على نيل الشهادة[1].

موقف سعد بن الربيع يوم أحد

روى ابن المبارك عن محمد بن سعد أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟**» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فقال: فخرج يطوف في القتلى حتى وجد سعدًا جريحًا قد أثبت بآخر رمق، فقال: يا سعد إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر من الأحياء أنت أم من الأموات؟ قال: فإني في الأموات، أبلغ رسول الله ﷺ مني السلام، وقل له: إن سعدًا يقول لك، جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعدًا يقول لكم: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف.

وهذا مرسل والقصة كانت يوم أُحد ذكرها أصحاب المغازي وغيرهم.

ورواه البيهقي في «الدلائل» متصلًا عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال: بعثني النبي ﷺ يوم أُحُد أطلب سعد بن الربيع فقال لي: «**إن رأيته فاقرئه مني السلام وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟**» فطفت بين القتلى، فأصبته في أخر رمق وبه سبعون ضربه فأخبرته، فقال: على رسول الله السلام، وعليكم، وقل له: يا رسول الله! أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله، إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرف، قال: وفاضت نفسه[2].

---

(١) قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٢): ورواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه ابن المبارك في «الجهاد» (١/ ١٠٨)، والحاكم (٣/ ٢٠١)، وهو مرسل، وسعيد بن منصور (٢/ ٣/ ٣٢٨)، والحاكم (٣/ ٣٠١)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي وهو في «الصحيحين».

موقف أبي عقيل يوم اليمامة

قال: لما كان يوم اليمامة كان أول من خرج أبو عقيل[1]، رُمي بسهم فوقع بين منكبه وفؤاده، فأخرج السهم فوهن له شقه الأيسر، وجُرَّ إلى الرَّحلِ، فلما حَمِيَ القتال وانهزم المسلمون، سمع معن بن عدي يصيح بالأنصار: الله، الله والكرَّة على عدوكم، قال عبد الله بن عمر: فنهض أبو عَقيل، فقلت: ما تريد؟ قال: نوّه المنادي باسمي فقلت: ما يعني الجرحى، قال: أنا من الأنصار، وأنا أجيبه ولو حَبوًا، فتحزَّم وأخذ السيف، ثم جعل ينادي، يا للأنصار! كرَّة كيوم حُنين قال ابن عمر: فاختلفت السيوف بينهم، فقطعت يده المجروحة من المنكب، فقلت: أبا عقيل! قال: لبيك بلسان الملتاث، لمن الدَّبْرَةُ؟ قلت: أبشر فقد قتل عدو الله فرفع إصبعه إلى السماء فحمد الله فمات، قال ابن عمر: فأخبرت عمر، فقال: رحمه الله ما زال يطلب الشهادة ونالها[2].

عبد الله بن حذافة السهمي مع ملك الروم

روى ابن الأثير في كتابه «أُسْد الغابة في معرفة الصحابة» بإسناده، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أسرت الروم عبد الله بن حُذافة السّهمي صاحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له الطاغية: تنصّر وإلا ألقيتك في النقرة -نقرة من نحاس- قال: ما أفعل، فدعا بالنقرة النحاس فمُلئت زيتًا وأغليت، ودعا برجل من أسارى المسلمين فعرض عليه النصرانية فأبى فألقاه في النقرة فإذا عظامه تلوح، وقال لعبد الله: تنصر وإلا ألقيتك، قال: ما أفعل؟، فأمر به أنى يلقى في النقرة، فبكى، فقالوا: قد جزع قد بكى، قال: ردوه، فردوه، فقال: لا ترى أني بكيت جزعًا مما تريد أن تصنع بي ولكني بكيت حيث ليس لي إلا نفس واحدة يفعل بها هذا في الله وكنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعرة

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة، البلوي، حليف بن حجبي، من الأنصار وأبو عقيل، شهد بدرًا.

(٢) رواه أبو المظفر بن الجوزي في كتاب «مرآة الزمان».

فيّ، ثم تسلط عليَّ فتفعل بي هذا، قال: فأعجب به، وأحب أن يطلقه، فقال: قبل رأسي وأطلقك، قال: ما أفعل، قال: تنصر وأزوجك ابنتي وأقاسمك ملكي، قال: ما أفعل؟ قال: قبل رأسي وأطلقك وأطلق معك ثمانين من المسلمين، قال: أما هذه فنعم فقبل رأسه، فأطلقه وأطلق معه ثمانين من المسلمين، قال: فلما قدموا على عمر بن الخطاب قام إليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقبل رأسه.

وفي رواية لغيره فقال عمر: حق على كل مسلم أن يقبل رأس حُذافة، وأنا أبدأ فقبل رأسه، فكان أصحاب رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمازحون عبد الله فيقولون: قبَّلت رأس علج، فيقول: نعم، أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين.

فيالله من قبلة خالصة لله عَزَّوَجَلَّ أطلق الله بها ثمانين من أسرى المسلمين من يدي الكفار حتى صاروا إلى جيوش المسلمين.

أيظن أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستأثروا به دوننا؟

«أيظن أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستأثروا به دوننا، والله لنزاحمنهم عليه زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خَلَّفُوا وراءهم رجالًا» كلمة قالها أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ تدل على صدق المحبة، والحرص على حسن التأسي والاتباع، لقد علمُوا أن السبق سبق الفضل والصفات لا سبق الزمان والمكان فهذه الأمة أتت بعد اليهود والنصارى، وهي خير أمة أخرجت للناس، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. إنها كلمة رجل مجاب الدعوة، من خيار التابعين رجل صنع الله به مثل صنيعه بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

لقد أدرك معنى المنافسة في الخير، وأن التطلُّع لما عند الله لابد فيه من مزاحمة حَقِّه حول رسول الله ﷺ فلا إيثار في القرب: قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

لقد علت همتهم فلم تتلاعب بهم الدنيا، ولا تطلعوا المال أو منصب أو جاه، ولا نظروا للموضات وحفظ الأغنيات ومشاهدة الأفلام والمسرحيات، ولقد كانت حياتهم ترجمة لمعاني الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا، وكان لسان حالهم ينطق: الله غايتنا والرسول ﷺ قدوتنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا، قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٠].

هل نتجاسر اليوم ونَقْوَى على النطق بمثل كلمة أبي مسلم؟ وهل تواتينا الشجاعة لطلب المعالي؟ لا سبيل لعلاج العوج وإنهاء الغربة إلا بالرجوع لمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، لا سبيل للعودة لمعاني القوة والعزة والتمكين إلا باقتفاء، آثار هؤلاء الأتقياء الأخفياء الذين عاشوا بالإسلام وللإسلام.

لا سبيل للوصول لمعاني الرجولة الحَقَّة إلا بترك التخنُّث والميوعة وترك متابعة المغضوب عليهم والضَّالين، لقد حفظ لنا الله تعالى الكتاب والسنة، وحفظ لنا من يقوم بهذا الدين، فلن تخلو الأرض من قائم لله بحجة، يقيمون حجج الله وبيناته على العباد، وينفون عن دين الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، فاللهم اجعلنا من الذين يقومون بالحق وبه يعدلون[1].

(١) انظر كتاب «الأتقياء الأخفياء» للشيخ سعيد عبد العظيم.

هل تعرف جُلَيبيبًا؟

لابد وأن يعترينا الخجل إذا كانت الإجابة بالنفي في الوقت الذي تعرفنا فيه على دقائق سير المشهورين من الساسة والزعماء ورجال الأدب والفن وأضعنا الأوقات الكثيرة فيما لا فائدة فيه، وكان أَحرَى بنا وأَولى أن نتعرف على هؤلاء الأفاضل الأخيار فذكراهم تُحيي القلوب وكلنا يحتاج لأُسْوة وقدوة، روى مسلم عن أبي برزة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في مغزى له فأفاء الله عليه فقال لأصحابه «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم فلانًا وفلانًا ثم قال: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم، فلانًا وفلانًا وفلانًا ثم قال: «هل تفقدون من أحد» قالوا: لا، قال: «لكني أفقد جُلَيبيبًا فاطلبوه» فطلب في القتلى فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه، فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوقف فقال: «قتل سبعة ثم قتلوه هذا مِنِّي وأنا منه، هذا مِنِّي وأنا منه»، قال: فوضعه على ساعديه ليس له إلا ساعدا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فحفر له ووضع في قبره ولم يذكر غسلًا، وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جُلَيبيب «هذا مني وأنا منه» معناه في المبالغة في إتحاد طريقتهما واتفاقهما في طاعة الله تعالى ولكونه مات شهيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يغسل ولم يصل عليه وهكذا رفع الإسلام جليبيبًا بينما وضع أبا جهل وأبا لهب وفي الحديث: حث على التعرف على أمثال الصالحين حتى وإن كانوا مغمورين، والسؤال عنهم، وإبراز فضلهم والاعتراف بقدرهم ويتأكد هذا بصفة خاصة في حق من يقود ويتزعم قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وعن أبي برزة الأسلمي أن جليبيبًا كان امرءً من الأنصار، وكان أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كان لأحدهم أيِّم (التي لا زوج لها) لم يزوجها حتى يعلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هل له فيها حاجة أم لا؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم لرجل من الأنصار: «يا فلان زَوِّجْني ابنتك قال: نعم ونعمة عين، قال: إني لست لنفسي أريدها، قال: لمن؟ قال: «لجليبيب» قال:

يا رسول الله حتى أستأمر «أشور» أمها، فأتاها فقال: إن رسول الله ﷺ يخطب ابنتك، قالت: نعم ونعمة عين، زوج رسول الله ﷺ قال إنه ليس لنفسه يريدها، قالت: فلمن؟ قال لجليبيب قالت حلقي أجليبيب؟ لا لعمر الله لا أزوج جليبيبًا، فلما قام أبوها ليأتي النبي ﷺ قالت الفتاة من خدرها لأبويها من خطبني إليكما؟ قالا: رسول الله ﷺ، قالت: أفتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ ادفعوني إلى رسول الله ﷺ فإنه لن يضيعني فذهب أبوها إلى النبي ﷺ فقال: شأنك بها فزوَّجها جُليبيبًا، قال إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة لثابت: أتدري ما دعا لها به النبي ﷺ؟ قال: وما دعا لها به النبي ﷺ؟ قال اللهم صُب عليها الخير صبًّا صبًّا ولا تجعل عيشها كدًّا كدًّا»[1]، قال ثابت فَزوَّجها إياه فما في الأنصار أيِّم أنفق منها.

قال ابن سعد: وسمعت من يذكر أن جليبيبًا كان رجلًا من بني ثعلبة حليفًا في الأنصار، والمرأة التي زوجها النبي ﷺ إياه من بني الحارث بن الخزرج رضي الله عنه ولسائل أن يسأل ما لونه؟ وما اسم أبيه؟ وما عمره؟ كل هذا طُوِي عَنَّا لكونه لا فائدة فيه وبقي جُليبيب عَلَمًا من أعلام الصلاح والتُّقى ترد سيرته على كل من طلب شهرة زائفة لا خير فيها، ولا فائدة معها، ثم احرص على تحقيق معاني الأخوة الإيمانية وإلا فهي لا تقتصر على هؤلاء البارزين، ولابد من السعي في مصالح هؤلاء الأخفياء الذين نتوسَّم فيهم الصلاح والتُّقى، وإذا افتخر الناس يومًا بأنهم قابلوا فلانًا المشهور وتحدثوا معه أو صافحوه، فليكن لك أنت شأن آخر تحرص على تقوى الله وتقترب من أهلها.

---

(١) صحيح رواه الإمام أحمد بسند صحيح.

وماذا تعرف أيضا عن ذي البجادين؟

عن محمد بن سعد قال: كان ذو البجادين يتيمًا لا مال له فمات أبوه ولم يورثه شيئًا وكفله عمه حتى أيسر، فلما قدم النبي ﷺ المدينة كانت نفسه تتوق إلى الإسلام ولا يقدر عليه من عمه حتى مضت السنون والمشاهد، فقال لعمه: يا عم إني قد انتظرت إسلامك فلا أراك تريد محمدًا فائذن لي في الإسلام، قال: والله لئن اتبعت محمدًا لا أترك لك بيدك شيئًا كنت أعطيتكاه إلا نزعته منك حتى ثوبيك قال: فأنا والله متبع محمدًا وتارك عبادة الحجر وهذا ما بيدي فخذه، فأخذ ما أعطاه حتى جرده من إزاره فأتى أمه فقطعت بجادًا لها باثنين فاتزر بواحد وارتدى بالآخر ثم أقبل إلى المدينة وكان بورقان (جبل على يمين المار من المدينة إلى مكة) فاضطجع في المسجد في السحر (الوقت من آخر الليل).

وكان رسول الله ﷺ يتصفح الناس إذا انصرف من الصبح فنظر إليه فقال: من أنت؟ فانتسب له وكان اسمه عبد العزى، فقال: «**أنت عبد الله ذو البجادين**»، ثم قال: «**انزل مِنِّي قريبًا**» فكان يكون في أضيافه حتى قرأ قرآنًا كثيرًا فلما خرج النبي ﷺ إلى تبوك قال: ادع الله لي بالشهادة فربط النبي ﷺ عن عضده لحي سَمُرة (من شجر الطلح) وقال: «**اللهم إني أحرم دمه على الكفار**» فقال: ليس هذا ما أردت: قال النبي ﷺ: «**إنك إذا خرجت غازيًا فأخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد أو وقصتك دابتك** (كسر العنق) **فأنت شهيد**» فأقاموا بتبوك أيامًا ثم تُوفي، قال بلال بن الحارث: حضرت رسول الله ﷺ ومع بلال المؤذن شعلة من نار عند القبر واقفًا بها وإذا رسول الله ﷺ وهو يقول: «**أدنيا إليَّ أخاكما**» فلما هيأه لشقه في اللَّحدِ قال: «**اللهم إني قد أمسيت عنه راضيًا فارض عنه**»، فقال ابن مسعود: ليتني كنت صاحب اللحد وعن أبي وائل عن عبد الله قال: والله لكأني أرى رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبر

عبد الله ذي البجادين وأبو بكر وعمر يقول: «أدنيا إليَّ أخاكما» وأخذه من قبل القبلة حتى أسكنه في لحده ثم خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووليا هما العمل فلما فرغ من دفنه استقبل القبلة رافعًا يديه يقول: «اللهم إني أمسيت عنه راضيًا فارض عنه»[1]، وكان ذلك ليلًا، يقول ابن مسعود: فوالله لوددت أني مكانه ولقد أسلمت قبله بخمس عشرة سنة، فرضي الله عن ذي البجادين وعن سائر صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واعلم أن كل صحابي أفضل من كل من جاء بعده سواء كان مشهورًا أو غير مشهور.

حكاية أويس بن عامر القرني

روى مسلم عن أسيد بن جابر: أن أهل الكوفة وفدوا إلى عمر وفيهم رجل ممن كان يسخر بأويس، فقال عمر: هل هنا أحد من القرنيين، فجاء ذلك الرجل فقال عمر: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال: «إن رجلًا يأتيكم من اليمن يقال له أويس لا يدع باليمن غير أم له، قد كان به بياض فدعا الله فأذهبه عنه إلا موضع الدينار أو الدرهم، فمن لقيه منكم فليستغفر لكم»[2]، قال النووي: قوله وفيه رجل يسخر بأويس أي يحتقره ويستهزئ به وهذا الدليل على أنه يخفي حاله ويكتم السِّرَّ الذي بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ ولا يُظْهِر منه شيء يدل لذلك، وهذه طريق العارفين وخواص الأولياء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن خير التابعين رجل يقال له أويس وله والدة، وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم»[3]، وفي رواية أخرى قال لعمر: «فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» وهذه مَنْقَبَةٌ ظاهرة لأُويس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه استحباب طلب الدعاء والاستغفار من أهل الصلاح وإن كان الطالب أفضل منهم.

(١) أخرجه البزار عن شيخه عباد بن أحمد العرزمي وهو متروك.
(٢) صحيح: رواه مسلم.
(٣) صحيح: رواه مسلم.

وروى مسلم أيضًا عن أسيد بن جابر، قال: كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم أفيكم أويس بن عامر حتى أتى على أويس فقال أنت أويس بن عامر قال: نعم، قال: من مراد ثم من قرن قال: نعم، قال: فكان بك برصٌ فبرأت منه إلا موضع درهم قال: نعم، قال: لك والدة قال: نعم، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لبره فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**»[1]، فاستغفِر لي، فاستغفَرَ له، فقال عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها، قال: أكون في غبراء الناس -أي ضعافهم الذين لا يؤبه لهم- أحب إليّ، وهذا من إيثار كتم حاله وترك الشهرة».

قال: فلما كان من العام المقبل حَجَّ رجل من أشرافهم فوافق عمر فسأله عن أويس قال: تركته رثّ البيت قليل المتاع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يأتي عليكم أويس بن عامر من أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، ولو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**»[2]، فأتى أويسًا فقال: استغفر لي قال: أنت أحدث عهدًا بسفر صالح فاستغفر لي، قال لقيت عمر؟ قال نعم، فاستغفر لي ففطن له الناس فانطلق على وجهه قال أسيد: وكسوته وبُردة فكلما رآه إنسان قال: من أين لأويس هذه البردة.

وفي قصة أويس هذه معجزات ظاهرة لرسول الله ﷺ وفيها التصريح بفضل أويس القرني وأنه خير التابعين قال النووي: قد يقال: قد قال أحمد بن حنبل وغيره: أفضل التابعين سعيد بن المسيب والجواب أن مرادهم أن سعيدًا أفضل في العلوم

(١) صحيح: رواه مسلم.

(٢) صحيح: رواه مسلم.

الشرعية كالتفسير والحديث والفقه ونحوها لا في الخير عند الله تعالى، وفي هذه اللفظة معجزة ظاهرة أيضًا. اهـ.

ويُذْكَر أن أويسًا ارتقى يومًا درج مسجد الكوفة ثم قال: يا أهل الكوفة توسدوا الموت إذا نمتم وضعوه نصب أعينكم إذا قمتم، وقد سماه الشاطبي سيد العباد بعد الصحابة لما عرف عنه من كثرة العبادة ويصفه الذهبي بأنه «القدوة سيد التابعين في زمانه» وكان أحمد بن حنبل يضرب به المثل في الزهد فيقول: لا زهد إلا زهد أويس بلغ به العري حتى قعد في قوصره، كان أويس يقول: بلغني أن لله عبادًا سجودًا أبدًا، وكان يقول: لأعبدن الله في الأرض كما تعبده الملائكة في السماء، وكان يقول: يا عجب ممن يعلم أن الجنة تُزَيَّنُ فوقه وأن النار تُسعر تحته كيف ينام من هو بينهما ينظر إليهما، وكان ينصح هرم بن حيان بلزوم الجماعة يقول له: لا تفارق الجماعة فتفارق دينك، وكان يعتذر إلى ربه ويقول: اللهم إني أعتذر إليك اليوم من كل كبد جائعة وبدن عارٍ فإنه ليس في بيتي من الطعام إلا ما في بطني وليس لي شيء من الدنيا إلا ما على ظهري، ولم يكن على ظهره حينئذ إلا خرقة وكان يقول: إن قيام المؤمن بأمر الله لم يُبقِ له صديقًا، فرحمه الله رحمة واسعة.

حكاية أبي قدامة الشامي

حكاها جماعة منهم أحمد بن الجوزي الدمشقي في كتابه المسمى «بسوق العروس وأنس النفوس» فحكى أنه كان بمدينة رسول الله ﷺ رجل يقال له: أبو قدامة الشامي، وكان قد حبب الله إليه الجهاد في سبيل الله تعالى والغزو إلى بلاد الروم، فجلس يومًا في مسجد رسول الله ﷺ يتحدث مع أصحابه فقالوا له: يا أبا قدامة حدثنا بأعجب ما رأيته في الجهاد قال: نعم إني دخلت في بعض السنين الرقة[1]، أطلب جملًا

(١) الرقة مدينة مشهورة على الفرات.

أشتريه ليحمل سلاحي، فبينا أنا يومًا جالسًا إذ دخلت عليَّ امرأة فقالت: يا أبا قدامة سمعتك وأنت تحدث عن الجهاد وتحث عليه، وقد رزقت من الشعر ما لم يرزقه غيري من النساء وقد قصصته وأصلحت منه شِكالًا للفروس وعفرته بالتراب لئلا ينظر إليه أحد، وقد أحببت أن تأخذه معك فإذا صرت في بلاد الكفار وجالدت الأبطال ورميت النبال وجردت السيوف وشرعت الأسنَّة، فإن احتجت إليه وإلا فادفعه إلى من يحتاج إليه ليحضر شعري ويصيبه الغبار في سبيل الله فإني امرأة أرملة كان لي زوج وعصبة كلهم قتلوا في سبيل الله ولو كان عليَّ الجهاد لجاهدت قال: وناولتني الشكال.

وقالت: اعلم يا أبا قدامة أن زوجي لما قتل خلف لي غلامًا من أحسن الشباب وقد تعلم القرآن والفروسية والرمي عن القوس، وهو قوَّام بالليل صوَّام بالنهار وله من العمر خمس عشرة سنة، وهو غائب في ضيعة خلفها له أبوه فلعله يقدم قبل مسيرك فأوجهه معك هدية إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأنا أسألك بحرمة الإسلام لا تحرمني ما طلبت من الثواب، قال: فأخذت الشكال منها فإذا هو مضفور من شعر رأسها، فقالت: ألقه في بعض رحلك وأنا أنظر إليه ليطمئن قلبي، قال: فطرحته في رحلي وخرجت من الرَّقة ومعي أصحابي، فلما صرنا عند حصن مسلمة بن عبد الملك إذا بفارس يهتف من ورائي: يا أبا قدامة قف عليّ قليلًا يرحمك الله، فوقفت وقلت لأصحابي: تقدموا أنتم حتى أنظر من هذا وإذا بالفارس قد دنا مني وعانقني وقال: الحمد لله الذي لم يحرمني صحبتك ولم يردني خائبًا. قلت: حبيب أسفر لي عن وجهك، فإن كان يلزم مثلك غزو أمرتك بالمسير، وإن لم يلزمك، غزو رددتك فأسفر عن وجهه فإذا غلام كأنه القمر ليلة البدر وعليه آثار النعمة، قلت: حبيبي لك والد؟ قال: لا بل أنا خارج معك أطلب ثأر والدي لأنه استشهد فلعل الله أن يرزقني الشهادة كما رزق أبي، قلت: حبيبي لك والدة؟ قال: نعم، قلت: اذهب إليها واستأذنها فإن أذنت وإلا فأقم عندها؛ فإن طاعتك لها أفضل

مـن الجهاد لأن الجنة تحت ظلال السـيوف وتحـت أقدام الأمهات، قال: يـا أبا قدامة أما تعرفنـي؟، قـال: لا، قال: أنا ابـن صاحبة الوديعة ما أسرع ما نسـيت وصية أمي صاحبة الشـكال وأنا إن شـاء الله الشـهيد ابن الشـهيد، سـألتك بـالله لا تحرمني الغـزو معك في سـبيل الله فإني حافظ لكتاب الله عارف بسـنة رسـول الله ﷺ عارف بالفروسـية والرمـي، ومـا خلفت ورائي أفرس مني فلا تحرمني لصغر سـني، وإن أمي قد أقسـمت علي أن لا أرجع وقالت: يا بني إذا لقيت الكفار فلا تولهم الدُّبر وهب نفسك لله واطلب مجاورة الله ومجاورة أبيك مع أخوالك الصالحين في الجنة، فإذا رزقك الله الشـهادة فاشفع في فإنه بلغني أن الشـهيد يشـفع في سـبعين من أهله وسـبعين من جيرانه، ثم ضمتني إلى صدرها ورفعت رأسـها إلى السـماء وقالت: إلهي وسـيدي ومولاي، هذا ولدي وريحانة قلبـي وثمرة فؤادي سـلمته إليك فقربـه من أبيه، قال: فلما سـمعت كلام الغلام، بكيت بكاء شـديدًا أسـفًا على حسنه وجمال شـبابه ورحمة لقلب والدته وتعجبًا من صبرها عنه، فقـال: يا عم مم بكاؤك؟ إن كنت تبكي لصغر سـني، فـإن الله يعذب من هو أصغر مني إذا عصاه، قلت: لم أبك لصغر سنك ولكن أبكي لقلب والدتك كيف تكون بعدك؟ قال فسرنا ونزلنا تلك الليلة، فلما كان الغداة رحلنا والغلام لا يفتر من ذكر الله تعالى، فتأملته فـإذا هـو أفرس منـا إذا ركب، وخادمنـا إذا نزلنا منـزلًا، وصار كلما سرنـا يقوى عزمه، ويزداد نشـاطه، ويصفو قلبه، وتظهر علامات الفرح عليه، قال: فلم نزل سـائرين حتى أشرفنـا على ديـار المشركين عند غروب الشـمس، فنزلنا فجلس الغلام يطبـخ لنا طعامًا لإفطارنـا وكنـا صيامًـا فغلبه النعاس فنـام نومة طويلـة، فبينا هو نائم إذ تبسـم في نومه، فقلـت لأصحـابي: ألا ترون إلى ضحـك هذا الغلام في نومه؟ فلما اسـتيقظ قلت: حبيب رأيتك السـاعة تبتسم في منامك ضاحكًا، قال: رأيت رؤيا فأعجبتني وأضحكتني قلت: مـا هـي؟ قال: رأيـت كأني في روضة خـضراء أنيقة فبينما أنـا أجول فيهـا إذ رأيت قصرًا مـن فضة شرفه مـن الدر والجوهر، وأبوابه من الذهب، وسـتوره مرخيـة، وإذا جواري

يرفعن الستور وجوههن كالأقمار، فلما رأيتني قلن لي: مرحبًا بك، فأردت أن أمد يدي إلى إحداهن فقالت: لا تعجل ما آن لك، ثم سمعت بعضهن يقول لبعض: هذا زوج المرضية، فقلن لي: تقدم يرحمك الله فتقدمت أمامي، فإذا في أعلى القصر غرفة من الذهب الأحمر عليها سرير الزبرجد الأخضر قوائمه من الفضة البيضاء، عليه جارية وجهها كأنه الشمس، لولا أن الله ثبت عليَّ بصري لذهب وذهب عقلي من حسن الغرفة وبهاء الجارية، قال: فلما رأتني الجارية قالت: مرحبًا وأهلًا وسهلًا يا ولي الله وحبيبه، أنت لي وأنا لك، فأردت أن أضمها إلى صدري فقالت: مهلًا لا تعجل فإنك بعيد من الخنا[1]، وإن الميعاد بيني وبينك غدًا عند صلاة الظهر فأبشر، قال أبو قدامة فقلت له: حبيبي رأيت خيرًا يكون، ثم بتنا متعجبين من منام الغلام.

فلما أصبحنا تبادرنا فركبنا خيولنا فإذا المنادي ينادي، يا خيل الله اركبي وبالجنة أبشري قال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]. فما كان إلا ساعة وإذا جيش الكفر -خذله الله- قد أقبل كالجراد المنتشر، فكان أول من حمل منا فيهم الغلام فبدَّد شملهم، وفرق جمعهم، وغاص في وسطهم فقتل منهم رجالًا وجندل أبطالًا، فلما رأيته كذلك لحقته فأخذته بعنان فرسه وقلت: ياحبيب ارجع فأنت صبي ولا تعرف خدع الحرب، فقال: يا عم ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]. أتريد أن أدخل النار فبينا هو يكلمني إذ حمل علينا المشركون حملة رجل واحد فحالوا بيني وبين الغلام ومنعوني منه واشتغل كل واحد بنفسه وقتل خلق كثير من المسلمين.

فلما افترق الجمعان إذا القتلى لا يحصون عددًا، فجعلت أجول بفرسي بين القتلى ودماؤهم تسيل على الأرض وجوههم لا تعرف من كثرة الغبار والدماء، فبينا أنا أجول

(١) الخناء: قول الفحش.

بين القتلى، إذا أنا بالغلام بين سنابك الخيل، قد علاه التراب وهو يتقلب في دمه ويقول: يا معشر المسلمين، بالله ابعثوا لي عمي أبا قدامة فأقبلت إليه عندما سمعت صياحه، فلم أعرف وجهه لكثرة الدماء والغبار ودوس الدواب، فقلت: ها أنا أبو قدامة، قال: يا عم صدقت الرؤيا ورب الكعبة، أنا ابن صاحبة الشكال، فعندها رميت بنفسي عليه فقبلته بين عينيه ومسحت التراب والدم عن محاسنه وقلت: يا حبيبي لا تنس عمك أبا قدامة اجعله في شفاعتك يوم القيامة، فقال: مثلك لا ينسى، تمسح وجهي بثوبك؟ ثوبي أحق من ثوبك، دعه يا عم حتى ألقى الله تعالى به، ياعم! هذه الحور التي وصفتها لك قائمة على رأسي، تنتظر خروج روحي وتقول لي: عجِّل فأنا مشتاقة إليك، بالله يا عم إن ردك الله سالمًا، فتحمل ثيابي هذه المضخمة بالدم لوالدتي المسكينة الثكلى الحزينة وتسلمها إليها لتعلم أني لم أضيع وصيتها، ولم أجبن عند لقاء المشركين، وأقرئ مني السلام عليها وقل لها: إن الله قد قبل الهدية التي أهديتها، ولي يا عم أخت صغيرة لها من العمر عشر سنين كنت كلما دخلت استقبلتني تسلم علي، وإذا خرجت تكون آخر من يودعني، وإنها ودعتني عند مخرجي هذا وقالت لي: بالله يا أخي لا تبطئ عنا فإذا لقيتها فاقرأ عليها مني السلام وقل لها: يقول لك أخوك: الله خليفتي عليك إلى يوم القيامة، ثم تبسم وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، ثم خرجت روحه، فكفناه في ثيابه وواريناه رضي الله عنه وعنا.

قال أبو قدامة: فلما رجعنا من غزوتنا تلك ودخلنا الرقة، لم تكن لي همة إلا دار أم الغلام، فإذا جارية تشبه الغلام في حسنه وجماله، وهي قائمة بالباب وكل من مر بها تقول: يا عم من أين جئت؟ فيقول: من الغزاة، فتقول: أما رجع معكم أخي؟ فيقولون لا نعرفه، فلما سمعتها تقدمت إليها فقالت لي: يا عم من أين جئت؟ قلت: من الغزو قالت: أما رجع معكم أخي؟ ثم بكت وقالت: ما بالي أرى الناس يرجعون وأخي لم يرجع

فغلبتني العَبرة، ثم تجلدت خشية على الجارية، ثم قلت لها: يا جارية قولي لصاحبة المنزل: كلّمي أبا قدامة فإنه على الباب فسمعت المرأة كلامي، فخرجت إلي وقد تغير لونها، فسلمت عليها فردت السلام وقالت: أمبشرًا أنت يا أبا قدامة أم معزيًا؟ قلت: بيني لي البشارة من التعزية رحمك الله، قالت: إن كان ولدي رجع سالمًا فأنت معزٍ وإن كان قتل في سبيل الله فأنت مبشر، فقلت: أبشري، قَبِلَ الله هديتك فبكت وقالت: قبلها؟ قلت: نعم، فقالت: الحمد لله الذي جعله ذخيرة لي يوم القيامة، قلت: فما فعلت الجارية أخت الغلام؟ قالت: هي التي كانت تكلمك الساعة، فتقدمت إليّ فقلت لها: إن أخاك يسلم عليكم ويقول لك: الله خليفتي عليك إلى يوم القيامة، فصرخت وخرَّت على وجهها مغشيًّا عليها فحركتها بعد ساعة فإذا هي ميتة، فتعجبت من ذلك، ثم سلمت ثياب الغلام التي كانت معي لأمه وودعتها وانصرفت حزينًا على الغلام والجارية ومتعجبًا من صبر أمهما.

***